

الخاصية النظامية للغة ودورها في فهم كيف يبده العقل اللغة

د. ناصر الحريص

جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. يتنزل هذا البحث في سياق مناقشة طبيعة العلاقة بين اللغة من حيث كونها نظاما من العلامات، متعدد المستويات، وبين القدرة الخلاقة للعقل البشري في بناء هذا النظام وتفعيل دوره في التواصل الإنساني. يقدم البحث هذه الرؤية من خلال دراسة طبيعة "الخاصية النظامية للغة الإنسانية" بوصفها نظاماً علامياً راسخاً في الذهن. وقد سلك البحث مسلكاً وصفياً قصد التعريف بأهم الأنظار اللسانية الحديثة بداية من دي سوسير، ومروراً بأشهر لغويي القرن العشرين، ووصولاً إلى تشومسكي في نظريته التوليدية، والتي ركزت عبر نماذجها المتطورة على آلية إبداع اللغة، وكيف يبده العقل هذا النسق المتمثل في ظاهرة اللسان. بعد ذلك، ينصرف البحث في مسلك فرعي يسعى إلى استثمار هذه الخاصية في فهم طبيعة النحو العربي في مستوى تعليمه باعتباره أداة اكتساب اللغة وتعلمها.

١ - مدخل: نظامية اللغة في السياق التاريخي

إن المتتبع للمسار التاريخي للسانيات الحديثة، يلحظ بجلاء أنها مرت في تفسيرها لطبيعة اللغة الإنسانية بمنعطفات ثلاث كبرى^(١). كانت حقبة النحاة الجدد^(٢) أولى هذه المنعطفات، عندما أسسوا "منهج المقارنة التاريخي"، والذي انبثق منه ما بات معروفاً في الدراسات اللغوية بـ "اللسانيات التاريخية Diachronic" (ينظر روبنز ١٩٩٧ : ٢٩٧؛ يوسف؛ ٢٠٠٤ : ٢٤٥). وتتخلص فلسفة النحاة الجدد في النظر إلى اللغة بوصفها نشاطاً فردياً داخلياً، وليست كائناً حياً مستقلاً، أي أنها نشاط نفسي فيزيائي، يخضع لحالة الفرد المستخدم لها. ومن هنا، فإن على الباحث أن يركز على النشاط اللغوي للغة الفرد؛ لأنه من خلالها فقط يمكن أن يعرف كيف تنفذ التجديدات والتغيرات اللغوية في الجماعة اللغوية (ينظر بارتشت، ٢٠٠٤ : ٤٠). ولأن "هذا النشاط النفسي الفيزيائي للإنسان عند التعامل مع اللغة واحدٌ في كل الأزمنة [...]"، [فإنه] يمكن للمرء

(١) أما التاريخ العام لعلم اللسانيات بشكل عام فقد مر بثلاث مراحل فاصلة: (أ) اكتشاف اللغة السنسكريتية، لغة الكتاب المقدس (الفيدا) للأمة الهندية، (ب) ظهور قواعد النحو المقارن، (ج) نشوء اللسانيات التاريخية (دي سوسير ١٩٨٥ : ١٩-٢٣، وقدور ٢٠٠٨ : ١٧).

(٢) يطلق اصطلاح النحاة الجدد néo-grammairiens على مجموعة من العلماء الشبان ظهوروا في السبعينيات من القرن التاسع عشر، وأسسوا علم اللسانيات التاريخية المقارنة، ومن أشهرهم كارل بروجمان (١٨٤٩-١٩١٩)، وهرمان باول (١٨٤٦-١٩٢١)، وهرمان أستوف (١٨٤٧-١٩٠٩). وقد شكل النحاة الجدد تمهيداً للدرس اللساني بحيث نقلوا البحث اللغوي إلى مرحلة العلمية حين أبعدوا كل الممارسات الميتولوجية والعاطفية التي تقارب اللغة وفق رؤية انتمائية. كما اهتموا إلى حد كبير بدراسة اللهجات باعتبارها ممارسات لغوية كاملة بدل من تصورها انحرافات عن الأصل اللغوي كما قال النحو التقليدي المعياري وفق مبدأ الصواب والخطأ. لكنهم رأوا فيها ميداناً حيويًا لما تظهره من التغيير اللغوي ما دامت تمثل المرحلة الأخيرة في تنوع الأسرة الهندوأوروبية (ينظر بارتشت ٢٠٠٤ : ٣١، ويوسف ٢٠٠٤ : ٢٤٥).

أن يوضح (يفسر) عمليات لغوية في أزمنة سحيقة بالقوانين ذاتها مثلما يفسرها في الوقت الحاضر" (المرجع السابق: ٤٠).

أما المنعطف الثاني والمهم في تاريخ اللسانيات الحديثة في نظرتها وتفسيرها للغة الإنسانية، فيؤرخ له من عند ظهور مؤسس اللسانيات الحديثة العالم السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure، ويمتد حتى عصرنا الحاضر في فكر عالم اللسانيات الأمريكي ذائع الصيت أفرام نعوم تشومسكي Avram Noam Chomsky. كانت بداية هذا المنعطف عندما قوض دي سوسير دعائم اللسانيات التاريخية^(٣)، ودعا إلى تبني فرع جديد من اللسانيات يعنى بالدراسة الوصفية الآنية Synchronic. ومنذ ذلك، أخذ ميزان القوى يختل متحولاً من البحث المقارن في تاريخ اللغات إلى وصف اللغات مستقلة. وقد أدى ظهور هذا المنهج الجديد إلى تغير النظرة إلى طبيعة اللغة الإنسانية، وأصبحت في نظر أصحاب المنهج الوصفي نظاماً داخلياً، أو مجموعة قواعد يتعلمها أفراد مجتمع لغوي معين، وتكون مستقرّة بشكل تجريدي وفطري في أذهانهم على شكل قواعد ونظم صوتية (phonetic)، ونحوية (syntactic)، و صرفية (morphologic)، ودلالية (semantic). وبناء على ذلك، تكمن أهمية اللغة في كونها، أولاً، نظاماً عالمياً داخل المجموعة اللسانية مستقل عن المتكلمين به، وفي كونها ثانياً، نظاماً لغوياً يخضع لمعايير اجتماعية. تساعد معرفة خبايا هذا النظام وخصائصه على تكوين قاعدة للحكم على جميع مظاهر الكلام الأخرى (ينظر دي سوسير، ١٩٨٥ ب: ٢٩). وقد تطورت هذه النظرة النظامية للغة فيما بعد، ولا سيما عند تشومسكي، كما سنرى في ثنايا هذا البحث.

(٣) وذلك لأنها وضعت الدراسة اللغوية في أزمة منهجية؛ لاعتبارها اللغات كائنات حية شأنها في ذلك شأن الأجناس البيولوجية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ لأنه يتنافى مع "العلمية" التي يجب - كما يرى دي سوسير - على اللسانيات تحقيقها في دراستها للغات البشرية (ينظر دي سوسير، ١٩٨٥ أ، الفصل ١).

أما المنعطف الثالث في النظرة إلى طبيعة اللغة الإنسانية، فيمكن رصد بداياته منذ سنة ١٩٧٠م، وفقاً لهلبش (٢٠٠٧ : ٢٥). تتلخص هذه النظرة في الاتجاه الذي بات يعرف في الدرس اللساني اليوم بالاتجاه التواصلية - البراجماتي حيناً، والاتجاه التداولي حيناً آخر. وتتخلص فلسفة هذا الاتجاه في نقل اهتمام اللسانيات في تفسيرها لوظيفة اللغة الإنسانية من الخواص التركيبية والدلالية الداخلية للنظام اللغوي إلى البحث في وظيفة اللغة باعتبارها بنية معقدة للتواصل الاجتماعي، مركزاً في ذلك على عملية "الكلام"؛ لكونه نقطة التواصل اللغوي، ومفسر الوظائف الاجتماعية للغة. وقد قادت هذه النظرة الجديدة إلى نشوء فروع لسانية جديدة، من مثل لسانيات النص، واللسانيات التداولية، ونظرية الأفعال الكلامية، واللسانيات الاجتماعية التواصلية، واللسانيات النفسية التواصلية (ينظر دلاش، ١٩٩٣؛ هلبش، ٢٠٠٧). وهذا المنعطف في تاريخ الدرس اللساني الحديث لم يتمكن، على الرغم من أهميته، من سحب البساط من النظرة النظامية للغة^(٤)، التي ظلت حتى اليوم لها قدم السبق في الدراسات اللسانية المعاصرة.

(٤) لا يعني هذا بالطبع أن "نظامية اللغة" بعد غائب عن اللسانيات التداولية. فالتواصل لا يكون إلا عبر نظام، والجوانب التداولية وهي مكون أصيل من مكونات الكفاءة اللغوية التواصلية - تعمل بوصفها مصدراً للمحددات الوظيفية للنواتج المختلفة التي تعطيها المستويات اللغوية الأخرى. ما عناه البحث هنا، هو أن هذا الاتجاه لم يجعل من فكرة القول بأن اللغة نظام داخلي إبداعي محوراً يتكئ عليه في نظريته لتفسير طبيعة اللغة الإنسانية. أود أن أشكر هنا أحد الفاحصين على لفت انتباهي لهذا الأمر. كما أشكره أيضاً على الإشارة إلى وجود بعد رابع حديث في دراسة اللغة الإنسانية يقوم على العناية بالمنظور الاجتماعي للغة، وبنظامية العلاقة بين اللغة والاستعمال. يتمثل هذا الاتجاه في ما بات معروفاً بـ"اللسانيات الوظيفية النسقية

ولأهمية نظرية "نظامية اللغة" The Systematicity of Language^(٥) في تفسير طبيعة اللغة الإنسانية، وفهم ما يحيط بها من تعقيدات - يحاول البحث الحالي تقديم دراسة وافية حول هذه النظرية متتبعاً تطورها التاريخي، وراصدًا أهم فرضياتها، وملقيًا الضوء على أهميتها في فهم عملية إبداع العقل للغة. كما يحاول البحث في نهايته أن يرصد هذه النظرية في التراث العربي، وأن يقدم مقترحًا حول مدى استفادة اللغة العربية من هذه النظرية، لا سيما، في فهم العلاقات النحوية في نظامها اللغوي.

٢- دي سوسير ونظامية اللغة

٢-١. ثنائية اللغة والكلام

تعدُّ ثنائية اللغة (Language) والكلام (Parole) من المبادئ التي بنى دي سوسير^(٦) عليها نظريته الوصفية البنيوية، والتي فصل بها اللغة بوصفها نظامًا علاميًا

(٥) تُرجم مصطلح "نظامية اللغة" ابتداءً بـ Language Systematic، لكن أحد الفاحصين مشكورًا دلي على المقابل الدقيق في الأدبيات اللسانية الغربية لمصطلح "نظامية اللغة"، عندما ذكر لي بحث كينت جونسون Kent Johnson (٢٠٠٤) الذي حمل عنوان: The Systematicity of Language and thought. وقد عدت إلى البحث، فوجدت أن ترجمة مصطلح "نظامية اللغة" بالمقابل المثبت في بحث جونسون هو الأقرب لموضوع البحث الحالي. أكرر شكري هنا للفاحص على تصويبه وإثرائه.

(٦) كان مولده في مدينة جنيف سنة ١٨٥٧م، وكان من ألمع علماء عصره، وذا شخصية قوية وموهبة لسانية أصلية، لم تجعل منه مؤسسًا لمدرسة مهمة في اللسانيات الحديثة، التي يعد هو مؤسسها الأول، بل مؤسسًا لعصر بأكمله من الدرس اللساني. على الرغم من أنه كان مقلًا في النشر، إلا أن كتابه "دروس في اللسانيات العامة" أو "علم اللغة العام" المنشور سنة ١٩١٦م (أي بعد وفاته بثلاث سنوات) نحى بالدرس اللساني منحى جديدًا، وأرخ لعصر لعهد جديد من الدراسة اللسانية يتصف بالعلمية والشمولية (للمزيد حول دي سوسير، ينظر أريفيه ٢٠٠٩). ولقوة تأثير هذا الكتاب في الدرس اللساني الحديث، فقد ترجم إلى اليابانية سنة ١٩٢٨م، ثم إلى الألمانية سنة ١٩٣١م، وإلى الروسية سنة ١٩٣٣م و الإسبانية سنة =

راسخاً في الذهن عن الكلام الفعلي. وتتلخّص هذه الثنائية في كون اللغة منظومة لا تُعرّف، ولا تعترف إلا بنظامها الداخلي الخاص. وتوضيحاً لذلك يقول دي سوسير (١٩٨٥: ب: ٢٠)^(٧): "إن اللغة منظومة لا قيمة لمكوناتها؛ أي لعلاقاتها اللغوية، إلا بالعلاقات القائمة فيما بينها، وبالتالي لا يمكن للألسنيّ اعتبار مفردات لغة ما كيانات مستقلة، بل عليه وصف العلاقات التي تربط هذه المفردات". وبناء على ذلك، يكمن مفهوم كون اللغة نظاماً عند دي سوسير في مجموع تلك القوانين التي تقوم عليها هذه المنظومة، وفي مختلف العلاقات القائمة بين مفرداتها وتراكيبها. ومن هنا، على الذي ينظر في اللغة أن يعتدّ بهذه العلاقات، وبتكامل الوحدات اللغوية فيما بينها، وأن يكون انطلاقه "للهولة الأولى من اللغة؛ لكي يتخذها معياراً للظواهر اللغوية الأخرى كافة" (دي سوسير، ١٩٨٥: ب: ٢٠).

أما الكلام سواء كان منطوقاً أو مكتوباً فهو التحقيق الفعلي لتلك القواعد النظامية - التي تولد غريزياً داخل اللغة - من قِبَل الأفراد عن طريق صياغتها في جُمْل وتعبير، وتوظيفها ومُمارستها بشكل واقعي. ومن هذا المنطلق، يُعدُّ الكلام ظاهرة فردية وسلوكاً فردياً خاصاً، بينما اللغة ظاهرة اجتماعية عامة؛ لأن اللغة شيء مجرد ومستقلّ عن المتكلم عكس الكلام الذي يتوقّف على إرادة المتكلم وذكائه (ينظر دي سوسير، ١٩٨٥: ب: ٢٧).

١٩٤٥م و إلى الإنجليزية سنة ١٩٥٩م و البولونية سنة ١٩٦١م و الإيطالية سنة ١٩٦٧م، وأخيراً إلى العربية في عدة ترجمات أولها كان سنة ١٩٨٤م. انظر علوي ٢٠٠٩: ٢٠٠-٢٠٢).

(٧) لكي نحصل على فهم أدق لكلام دي سوسير، اعتمدنا في هذا البحث ترجمتين لكتاب دي سوسير. الأولى ترجمها يوثيل يوسف عزيز ويشار إليها في التوثيق بسنة طباعتها ١٩٨٥ مشفوعاً بحرف أ، وتعرف بالترجمة العراقية. والثانية ترجمها كل من صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة ويشار إليها في التوثيق بسنة طباعتها ١٩٨٥ مشفوعاً بحرف ب، وتعرف بالترجمة التونسية.

ويشبهه دي سوسير (١٩٨٥: ٣٨) اللغة بوصفها نظاماً داخلياً بـ"المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع، فاللغة لها وجود في كل فرد، ومع ذلك هي موجودة في المجموع"، وذلك لأنها "موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين". فاللغة، بوصفها نظاماً داخلياً، كالقاموس الذي توجد فيه الكلمات صامته غير منطوقة، إنما تستخرج منه الكلمات بحسب الحاجة إليها. فاللغة بهذا المفهوم، إذن، هي النظام الذهني (الداخلي) القائم في عقول الجماعة اللغوية الواحدة، ويحاول كل فرد من هذه الجماعة أن يستخدمها، ويسمى استخدامه (كلاماً)، يحدث بواسطته التطور والتقدم لها.

ومما سبق يتضح لنا أن مفهوم نظامية اللغة عند دي سوسير على مستويين: اللغة الملكية الإنسانية Language الموجودة بالضرورة في التركيب العقلي لكل فرد وإنسان ويدخل فيها القواعد والأنظمة المشتركة للغات الإنسانية، واللغة المعينة Langue التي هي نظام موجود في أذهان الجماعات، والتي تكونت من نتاج مجموع الكلام الفردي لدى جماعة محددة، فهي نظام اجتماعي، وقوانين عامة مشتركة بين جماعة لا تخص فرداً بعينه. ويتحقق عنده هذا النظام اللغوي من خلال مستوى الكلام (الأداء الفردي)، الذي هو بدوره يتحقق من خلال هذا النظام الاجتماعي، والشكل المتجلي لهذا النظام الموجود في الأذهان، ويختلف فيه الفرد عن الآخر من الجماعة نفسها. وهذا النظام الاجتماعي خصه دي سوسير بمفهوم اللسان، وعرفه بالتواضع الاجتماعي لمجموعة من الناس على نمط صحيح يستخلص هذا النمط من نتاج الأفراد الكلامي (ينظر دي سوسير، ١٩٨٥: ٣٣).

ولكي يزيل أي تداخل، ربما يفهم، بين اللغة المعينة (اللسان) والكلام، ذكر دي سوسير (١٩٨٥أ: ٣٣) أربع نقاط تلخصُ - من وجهة نظره - الفوارق بينهما، وهي:

(أ) اللغة المعينة جزء اجتماعي من الكلام الإنساني أو الملكة الغوية، لا شأن لها بالفرد الذي لا يمكن أن يخلقها ولا أن يغيرها لنفسه وحده؛ فهي تنشأ على أساس نوع من الاتفاق بين أعضاء الجماعة اللغوية الواحدة.

(ب) اللغة المعينة يمكن تدرس دراسة منفصلة عن الكلام؛ ولا أدل على ذلك من أننا نستطيع دراسة اللغات الميتة مثل السنسكريتية، وإن لم يوجد من يتكلم بها اليوم.

(ج) اللغة المعينة ذات طبيعة متجانسة في ذاتها، فهي نظام من العلامات والرموز، كلا جانبيه نفسي سيكولوجي، ويكتسب أهميته من اتحاد المعنى بالصورة السمعية.

(د) اللغة شيء ملموس يمكن إدراكه، حيث إن العلامات اللغوية يمكن إدراكها بالحواس، فيمكن تحويلها إلى رموز كتابية تقليدية، في حين يصعب ذلك مع الكلام؛ إذ يتعذر علينا أن نقدم صوراً لأفعال الكلام؛ فالنطق بأصغر كلمة ينطوي على عدد لا يحصى من الحركات العضلية التي لا يمكن تمييزها وتحويلها إلى هيئة صور إلا بصعوبة كبيرة.

٢-٢. نظامية اللغة بوصفها ملكة فطرية

ولتوضيح رؤيته أكثر حول نظامية اللغة، يرى دي سوسير أن اللغة بوصفها نظاماً داخلياً في العقل الإنساني موجودة عند كل إنسان كملكة طبيعية فطرية، ولكنها لا تكفي للنطق بها، بل لابد من النظام الذي تتواضع عليه الجماعة ليتمكن استعمالها

وإنجاز عملية الكلام من خلالها. ومن هنا فإنه لا يمكن أن نعد الكلام ملكة واللغة مكتسبة، وفي هذا الصدد يقول: "نعتقد أنه توجد فوق عمل مختلف الأعضاء ملكة أعم، هي تلك التي تتحكم في الدلائل، والتي ربما تكون الملكة اللغوية بآتم معنى الكلمة" (دي سوسير، ١٩٨٥ ب: ٣١).

فاللغة المعينة (اللسان)، إذن، عنده منظومة، غير مادية، ذات قواعد وقوانين، تضم الوحدات اللغوية على مختلف المستويات، وهنا تتضح البنية والنسق والنظام الذي وصف به دي سوسير اللغة (١٩٨٥ أ: ٣٥). وتتكشف خفايا هذا النظام الفطري من خلال الكلام الذي هو الممارسة الذاتية والإنجاز الفردي له. وقد شبه دي سوسير هذا النظام بالسيمفونية التي تكون منفصلة تماما عن طريقة الأداء، فالأخطاء التي يرتكبها الموسيقار أثناء تأدية السيمفونية لا علاقة لها بالسيمفونية نفسها بل تعود للموسيقار (ينظر دي سوسير، ١٩٨٥ ب: ٣٧).

وصفوة القول أنَّ خاصية نظامية اللغة عند دي سوسير لها أركان ثلاثة، هي على الترتيب: اللغة بمفهومها العام، واللغة المعينة (أي اللسان)، والكلام. اللغة بوصفها نظاماً داخلياً، يتكون من مجموعة قواعد يكتسبها أفراد مجتمع لغوي معين، وتكون مستقرّة بشكل تجريدي وفطري في أذهانهم. ويتحقق هذا النظام فعلياً من خلال مستويين أحدهما اجتماعي يدعى اللسان، والآخر فردي يدعى الكلام. ويأتي الأول متأخراً عن الثاني، ولكنه في نطاق اللغة، فلا وجود للسان بدون الكلام؛ إذ هو، أي الكلام، شيء محدد يمكن أن يستخلص من وقائع كلام الجماعات؛ ليتكون من خلال ذلك اللسان الذي يخص جماعة دون غيرهم (ينظر أوكان ٢٠٠١).

وقد عمق هذا التمييز بين المستويات الثلاثة المشكلة لأركان نظرية نظامية اللغة - من توجيه النظر إلى اللغة من الداخل بوصفها نظاماً، قاد دي سوسير

(١٩٨٥ب: ٣١) إلى جعل اللسانيات علماً مستقلاً من خلال تحديد موضوعه الذي يبحث فيه، حيث يرى دي سوسير أن الكلام الفردي لا يمكن أن يكون موضوعاً لهذا العلم؛ لأنه عمل فردي يعتمد فيه الفرد على ذائقته، فلا يمكن أن يبنى العلم على ما يعتمد على الأفراد، وجعل من اللغة موضوعَ البحث اللغوي (ينظر بارتشت ٢٠٠٤: ٩٥ - ٩٧).

٣- نظامية اللغة بعد دي سوسير

٣-١. في الدرس اللساني في أوروبا

على الرغم من أن آراء دي سوسير في المدارس اللسانية التي ظهرت لاحقاً في أوروبا كانت واضحة وجلية، إلا أن تلك المدارس وإن أفادت من نظريته حول "نظامية اللغة"، كان جل اهتمامها مرتكزاً على البحث في وظيفة اللغة بوصفها وسيلة للاتصال ليس غير. ومن أهم تلك المدارس مدرسة براغ Prague School، التي أسسها اللساني التشيكي فاليم ماثيوس (1882-1945) (Vilem Mathesius)^(٨) سنة ١٩٢٦ م. وكان من أشهر علماء هذه المدرسة نيكولاي تروبتسكوي (1890-1938) (Nikolai Trubetzkoy)^(٩)، ورومان ياكبسون (1896-1982) Roman Jakobson (1982)^(١٠) (ينظر سيورن، 1998: 158).

(٨) عالم تشيكي، كان مهتماً بدراسة اللغة والتاريخ، وله اهتمام بأدب اللغة التشيكية والإنجليزية. أصبح عام ١٩١٢ م أول أستاذ للغة الإنجليزية وأدبها في جامعة تشارلز. كان كثير الاهتمام بعلمي النحو والأصوات في اللغتين الإنجليزية والتشيكية، إضافة لاهتمامه باللسانيات العامة، وما يتصل باللغة وقضايا الثقافة بشكل عام (مترجم عن الموسوعة الحرة على الانترنت).

(٩) عالم لساني روسي ولد سنة ١٨٩٠ بموسكو وتوفي سنة ١٩٣٨ بفينا وهو من عائلة عريقة تنتمي إلى أمراء روسيا، تولى والده منصب عميد جامعة موسكو، وانكب على الدراسات اللغوية منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره، وكان طالباً في قسم اللغة الهندو أوروبية في الجامعة التي كان يديرها والده، وأصبح في سنة =

لقد مثلت هذه المدرسة الاتجاه الوظيفي في دراسة اللغة؛ إذ حددت وبشكل واضح الوظيفة الحقيقية للغة، التي تتمثل بـ(الاتصال). وفي ضوء هذه الرؤية، تنظر هذه المدرسة إلى اللغة على اعتبار أنها ظاهرة طبيعية، ذات واقع مادي يتصل بعوامل خارجة عنه، يتعلق بعضها بالبيئة الاجتماعية ويتصل بعضها الآخر بالسامع، ويرجع قسم ثالث إلى الموضوع الذي يدور عليه الكلام. ونتيجة لهذه الفكرة برز في الدرس اللغوي الحديث ما يعرف بمستويات الاستعمال اللغوي كاللغة الأدبية، واللغة الثقافية، واللغة العامية^(١١) (ينظر روبنز، ١٩٩٧ : ٣٢٩).

وبعد مدرسة (براغ) جاءت مدراس لغوية أخرى، ومن أبرزها مدرسة (كوبنهاغن) أو المدرسة (النسقية)، التي أسسها عالم اللغة الدنماركي لويس

١٩١٦ عضوا في هيئة التدريس. لأسباب سياسية، انتقل إلى فيينا سنة ١٩٢٢ حيث درس فقه اللغة السلافية، وأصبح عضوا في "مدرسة براغ". يعد تروبتسكوي مؤسس علم الفونولوجيا، ففي مؤتمر اللسانيات العالمي الأول الذي عقد بمدينة (لاهاي) سنة ١٩٢٨، تقدم بالاشتراك مع جاكوبسونوكارسفسكي ببرنامج واضح للدراسة الفونولوجية، نشأت حوله مدرسة براغ اللسانية، وأصدر سنة ١٩٣٩ كتابه "مبادئ الفونولوجيا" الذي ترجم إلى الفرنسية سنة ١٩٤٩، تندرج أفكاره في إطار المفهوم الوظيفي للغة الذي نادى به مدرسة براغ (يفتش ٢٠٠٠، ص ٢٣٥).

(١٠) ولد رومان ياكسون بموسكو عام ١٨٩٦ وتركها إلى تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا والدانمارك. ودرس في كوبنهاجن وأوسلو قبل أن ينزح إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤١. بدأ التدريس في جامعة نيويورك عام ١٩٤٢ ثم في جامعة هارفارد، ونشر عددا من البحوث، وتوفي في سنة ١٩٨٢ (ينظر زكريا، ١٩٨٥، ص ١٦٣).

(١١) لعل من أهم منجزات هذه المدرسة وضعها نظرية كاملة في التحليل الفونولوجي، وقد قامت هذه النظرية على تصور خاص للفونيم كان له عظيم الأثر في تطور الدراسة اللغوية عامة، والدراسة الصوتية خاصة؛ إذ استطاع أن يحل كثيرا من المشكلات العلمية، ولاسيما في تعلم اللغات وتعليمها، وساعد كذلك على تحديد أخطاء النطق، وتعيين الاتجاه الصحيح لعلاج هذه الأخطاء (ينظر روبنز، ١٩٩٧ : ٢٩٣؛ ومومن، ٢٠٠٥ : ١٣٦).

هلمسلف (Louis Hjelmslev (1899-1965)^(١٢). وقد أطلق هلمسلف على هذه المدرسة الجلو سيماطيقا وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية وتعني اللغة أو اللسان؛ لتعيين النظرية المستخلصة من نظرية دي سوسير النظامية التي تجعل من اللغة غاية لذاتها لا وسيلة لتحقيق الغاية المقصودة بالكلام (بناني، ٢٠٠١: ٦٥).

ولمحاولتها البناء على نظرية "نظامية اللغة"، تميزت هذه المدرسة بالنظر إلى أن اللغة ليست مادة، وإنما هي صورة أو شكل في صورة حقل مغلق على نفسه وبنية لذاتها. وترى هذه المدرسة أن جميع اللغات تشترك في أنها تعبر عن محتوى؛ ولذا كان همها هو السعي إلى إبراز ما هو مشترك بين جميع اللغات البشرية. ومن هنا، انتقدت هذه المدرسة النظريات اللسانية التي تربط اللغة بالعوامل النفسية والاجتماعية (المرجع السابق).

ثم جاءت بعد ذلك مدرسة "لندن" التي أسسها العالم اللغوي الإنكليزي جون روبرت فيرث (John Rupert Firth (1890-1960)^(١٣). لقد قامت نظرية مدرسة "لندن" على

(١٢) ولد في كوبنهاجن عائلة أكاديمية، فقد كان والده عالما في الرياضيات. درس اللسانيات المقارنة في كوبنهاجن، وباريس، وبراغ مع أنطوان ميلت وجوزيف فندريس، وقد ساهمت أفكاره اللغوية في تأسيس مدرسة كويهاجن سنة ١٩٣١ مع صديقه هانز يورغن. طور كثيرا من آراء دي سوسير في النظرية البنوية والنظرية السميائية (بتصرف عن الموسوعة الحرة على الانترنت).

(١٣) عمل أستاذا للغة الإنجليزية في جامعة البنجاب من عام ١٩١٩ إلى ١٩٢٨، السنة التي تسلم فيها وظيفة في قسم الصوتيات في جامعة لندن، ثم انتقل في العام ١٩٤٢ إلى قسم اللسانيات في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن أستاذاً لعلم اللسانيات العامة، حتى تقاعد سنة ١٩٦٥. اشتهر بنظرية السياق، وكان يرى أن علم اللسانيات يجب أن يعامل ما يسميه (وقائع الكلام) على أنها مجرد وسيلة للوصول إلى ما يثير اهتمام معظم علماء اللغة فعلا. تخرج من هذه المدرسة لغويون عرب من مصر أثروا الدرس اللغوي العربي المعاصر من أمثال إبراهيم أنيس، وعبدالرحمن أيوب، وتام حسان، وكمال بشر، ومحمد أحمد أبو الفرج. كانت وفاة فيرث في لندن سنة ١٩٦٠ (ينظر جوزيف Joseph وآخرون ٢٠٠٦، ج ٢، ص ١٠٢).

فكرة "السياق" وما يتطلبه من معرفة العوامل المحيطة بعملية الكلام. وبذلك ابتعدت هذه المدرسة في رؤيتها لطبيعة اللغة عن النظرة النظامية للغة، وركزت على اللغة باعتبارها حدثاً كلامياً، لا بنيةً داخلية معقدة (ينظر حول هذه المدرسة، روبنز، ١٩٩٧ : ٣١٧).

٢-٣. في الدرس اللساني في أمريكا

لم يكن اللسانيون الأمريكيون الرواد منقطعي الصلة بالدرس اللساني الأوروبي، كما أن نظراءهم الأوروبيين كانوا على دراية بما يظهر في أمريكا من آراء وأفكار لسانية، فدي سوسير مثلاً كان يشير إلى كتاب اللغوي الأمريكي (وتني) الموسوم بـ (حياة اللغة ونموها) الذي ظهر في القرن التاسع عشر (ينظر دي سوسير، ١٩٨٥ أ: ٢٣). وفي المقابل نلاحظ، أيضاً، تأثير اللغويين الأمريكيين بالفكر اللساني الأوروبي، ف(بلومفيلد) وهو لغوي أمريكي، قد وقف طويلاً في كتابه (اللغة) عند دي سوسير. كذلك نجد أن اللغوي الأمريكي (نعوم تشومسكي)، كما سيأتي لاحقاً، قد تأثر بالفكر الديكارتي، وألف كتاباً أسماه (اللسانيات الديكارتية)، كما تأثر أيضاً بالألماني وهمبولد (ينظر المبحث ٤ - ١ - ١).

ومع وضوح هذا التأثير بالفكر اللساني الأوروبي، ولا سيما بأفكار رائده دي سوسير، ظل التأثير بنظرية "نظامية اللغة" محدوداً، ولا سيما عند أوائل أعلام الفكر اللساني الأمريكي في النصف الأول من القرن الماضي من مثل إدوارد سايبير Erward (1884-1939) Sapir^(١٤)، ليونارد بلومفيلد (1887-1949) Leonard Bloomfield^(١٥)، فقد

(١٤) ولد سايبير في منطقة لوينبرج في ألمانيا الغربية. (ليبورك في بولندا حالياً)، وانتقل مع أسرته إلى الولايات المتحدة وهو في الخامسة من عمره. وتلقى تعليمه في جامعة شيكاغو وجامعة ييل. من أبرز تلاميذ اللغوي الأمريكي فرانز بواز (١٨٥٨-١٩٤٢) ومتخصص في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) واللسانيات. بحث في العلاقة بين اللغة والثقافة والشخصية. وساعد في تأسيس فرعين جديدين للبحث في علم الإنسان هما: أ) علم الإنسان اللغوي الذي يحلل دور اللغة في المجتمعات المختلفة، ب) علم الإنسان النفسي الذي ينظر في =

انشغل الأول بفكرة "النماذج اللغوية، أو النسبية اللغوية" التي قصد بها أن كل إنسان يحمل في داخله الملامح الأساسية لنظام لغته، مركزاً في ذلك على النزعة الانثروبولوجية والاجتماعية والثقافية والنفسية للغة (ينظر بارتشت، ٢٠٠٤: ٢٠١)، بينما انشغل الثاني (أي بلومفيلد) بتبني مناهج علم النفس، ولا سيما منهج المدرسة السلوكية الذي كان الاتجاه المتصدر في العشرينات في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من أبرز أعلامه جون واطسون^(١٦) (John Watson 1878-1958) الذي يعد الأب الروحي لهذا الاتجاه الجديد في علم النفس آنذاك (ينظر هلبش، ٢٠٠٧: ١١٤). ولأن المنهج السلوكي يعتمد على الملاحظة والتجريب، فقد نظر إلى اللغة على أنها (مادة) قابلة للملاحظة المباشرة، وصالحة للقياس الاعتيادي، وترفض أي منحى

العلاقة بين الثقافة والشخصية. كما قام ساير باستحداث وسائل تمكّن العلماء من إعادة بناء التاريخ الثقافي والحضاري رغم اندثار الآثار المكتوبة (ينظر جوزيف Joseph وآخرون، ٢٠٠٦، ج ٢، ص ٢٣ وما بعدها). (١٥) أحد علماء اللغة الأمريكيين وأحد أهم الرائدین في مجال اللغويات البنوية في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين. من أعماله المهمة والتي أحدثت أثراً كبيراً في فهم اللغة وطبيعتها في ذلك الحين كتابه الذي أطلق عليه عنوان (اللغة) عام ١٩٣٣، والذي قدم وصفاً شاملاً للغويات البنوية في أمريكا. وقد قدم إسهامات كبيرة في ميدان اللغويات التاريخية للغات الهندوأوروبية وفي وصف العديد من اللغات في جنوب شرق آسيا والمحيط الهادي بالإضافة إلى وصف العديد من لغات السكان الأصليين في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان منهجه اللغوي متميزاً بالتركيز على الأسس العلمية للغويات والانطلاق من المذهب السلوكي في عدد من أعماله الأخيرة، بالإضافة إلى الاهتمام بالإجراءات البنوية في تحليل المعلومات اللغوية. إلا أن تأثير اللغويات البنوية التي أطلقها بلومفيلد قد تراجع وانحسر في نهاية الخمسينيات والستينيات بعد أن ظهرت نظريات القواعد التوليدية التي كان نعوم تشومسكي من أوائل واضعيها (بتصرف من الموسوعة الحرة على الانترنت).

(١٦) من أبرز علماء النفس في أمريكا في القرن العشرين، أسس المدرسة السلوكية في علم النفس. بدأ دراساته النفسية في جامعة شيكاغو وأخذ منها شهادة الدكتوراة سنة ١٩٠٣م، وعين فيها مساعداً لعلم النفس التجريبي إلى أن أصبح أستاذاً لعلم النفس التجريبي والمقارن، ومديراً للمعلم علم النفس (ينظر شربل ١٩٩١).

من الدرس يقوم على النظر العقلي، أو التأمل الذهني. ومن هنا، يرفض فرضية "نظامية اللغة" وعدّ اللغة نظاماً داخلياً غريباً؛ وذلك لأن الغرائز والقدرات الفطرية لا دور لها في اكتساب اللغة على عكس التعلم الذي هو المسؤول الأول في اكتساب أي نمط من السلوك (ليونز Lyons، ١٩٨٠). ومعنى ذلك أن اللغة عند بلومفيلد هي سلوك، بل هي ثمرة العمليات البيو اجتماعية، وأنها لا تفهم إلا في ضوء ما يعرف بالثيرات والاستجابات التي تحدث في البيئة التي تحيط بأي كائن حي، وتنطبق على سلوك كل فرد حي (بناني، ٢٠٠١: ٧٦).

ومن خلال هذا العرض الموجز، نلاحظ أن نظرية "نظامية اللغة" التي افترضها دي سوسير ظلت هامشية في بحوث واهتمامات علماء اللسانيات في أمريكا في الجزء الأول من القرن الماضي، ولكن نصفه الثاني، وبالتحديد سنة ١٩٥٠م، السنة التي ظهر فيها اسم نعوم تشومسكي لأول مرة في الحقل اللساني - كان إعادة بعثٍ لهذه الفرضية بعمق وإعمال فكر جعل منها نظرية شكلت نقطة تحول في مسار الدرس اللساني حتى يومنا هذا. فيما يلي عرض تفصيلي لتطور هذه النظرية على يد تشومسكي.

٤ - تشومسكي ونظامية اللغة

كانت فرضية "نظامية اللغة" من أبرز الأسس التي بنى عليها اللغوي الأمريكي المشهور أفرام نعوم تشومسكي^(١٧) AvramNoam Chomsky نظريته النحوية التي

(١٧) ولد نعوم تشومسكي في فلادلفيا عام ١٩٢٨م. درس الرياضيات والفلسفة واللسانيات في جامعة بنسلفانيا، ثم تابع البحث في اللسانيات في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين عندما ذهب للتدريس والبحث في جامعة هارفارد سنة ١٩٥٥م، ثم انتقل ليعمل في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا M.I.T، وما زال يعمل به حتى الآن (أستاذاً مدى الحياة). بالإضافة إلى عمله في اللغويات، فتشومسكي معروف على =

اشتهرت ابتداءً بنظرية النحو التوليدي والتحويلي Transformational Generative Grammar، ثم طرح منها مبدأ التحويل فيما بعد، وأصبحت تعرف بنظرية النحو التوليدي Generative Grammar. وقد بلغ تأثيرها في النظريات النحوية حداً يمكن معه القول بأن النحو التوليدي هو النحو السائد في الدراسات اللسانية منذ أواخر ستينيات القرن الماضي^(١٨)، وتحديدًا سنة ١٩٥٩م، عندما قوض تشومسكي دعائم المدرسة السلوكية التي شكلت منذ بداية ثلاثينيات القرن الماضي، المذهب الأكثر انتشاراً بآرائه وأساليبه التي أثرت بشكل لافت في مسار الدرس اللساني، وغيرت كثيراً مفاهيمه^(١٩). لقد جاءت النظرية التوليدية لتعطي الدرس النحوي عالمية وفق مبادئ جديدة. يقول تشومسكي (١٩٨٧: ١٣) موضحاً هدف الدراسة النحوية المتمثلة في نظريته الوليدة آنذاك:

يتناول النحو المبادئ والعمليات التي تبني الجمل في اللغات المختلفة. وتهدف الدراسة النحوية للغة ما إلى بناء نظام للقواعد يمكن اعتباره وسيلة من وسائل إنتاج جمل اللغة التي قيد التحليل. وبشكل أعم فعلى اللغويين أن يهتموا بمسألة تحديد الصفات الأساسية التي تستند إليها أنظمة القواعد الناجحة. وينبغي أن تكون النتيجة

نطاق واسع بوصفه ناشطاً سياسياً، وانتقاده للسياسة الخارجية للولايات المتحدة. ولقوة تأثيره، فقد ذكر فهرس مراجع الفنون والإنسانيات، بين ١٩٨٠ و ١٩٩٢، اسم تشومسكي بوصفه أكثر شخص حي يستشهد بكلامه، وثامن شخص على الإطلاق. لمزيد من المعرفة حول نشأة وحياتة تشومسكي، ينظر بارسكي Barsky (١٩٩٧)، وسميث Smith (١٩٩٩).

(١٨) وعنها يقول ليونز Lyons (١٩٨٥: ٢٩): "نظرية تشومسكي النحوية تعد بلا شك أكثر النظريات اللغوية حيوية وتأثيراً، بحيث لا يستطيع أي عالم لغوي يريد أن يساير التطور المعاصر في علم اللسانيات أن يتجاهل وجود هذه النظرية بل لقد أصبحت كل مدرسة لغوية الآن تحدد موقفها وموقعها بالنظر إلى آراء تشومسكي في قضايا لغوية معينة".

(١٩) كان ذلك في مراجعة لاذعة في مجلة اللغة سنة ١٩٥٩م. انظر قائمة المراجع.

النهائية لمثل هذه البحوث إنشاء نظرية للبنية اللغوية تظهر فيها الوسائل الوصفية التي تستخدمها أنظمة معينة للقواعد، وتدرس بأسلوب التجريد، دون الإشارة إلى أية لغة معينة. إن إحدى وظائف هذه النظرية هي توفير طريقة عامة لاختيار نظام قواعد لكل لغة من اللغات، إذا أعطي الباحث ذخيرة [كافية] من جمل هذه اللغة.

إن طموح تشومسكي -الذي يعكسه نصه السابق - في ابتداء نظرية عالمية لوصف أنحاء اللغات الإنسانية وصفاً موضوعياً، قاده إلى تبني، مع شيء من التحوير كما سنرى، القول بفكرة دي سوسير حول "نظامية اللغة". ولكي يقعد لهذه الفكرة التي تقوم أساساً على افتراض أن اللغة غريزة على شكل بنية structure في عقل المتكلم، نجده يتبنى فرضية الفطرة اللغوية، بمرجعيتها المعرفية/ الإدراكية، ويجعلها أساساً يقوض به المنهج السلوكي الذي كان سائداً في تفسير طبيعة اللغة البشرية آنذاك كما مر وسيمر بنا في الصفحات التالية. ولكي يقعد أيضاً تقعيداً علمياً لـ "نظامية اللغة" نجده يتبنى فرضية "القواعد الكلية" التي قادت لها ضمناً فرضية الفطرة اللغوية. كانت هاتان الفرضيتان حجر الأساس لنظريته حول "نظامية اللغة" التي تبورت أساساً عند سلفه دي سوسير في ثنائية اللغة والكلام كما وضحنا، بينما كانت عنده في صورتها "الكفاية اللغوية" و"الأداء الكلامي" كما ستوضحه المباحث الآتية بشيء من التفصيل.

٤-١. نظامية اللغة والمبادئ الأساسية للنظرية التوليدية

٤-١-١. الفطرة اللغوية

قاد تبني تشومسكي لنظرية الفطرة اللغوية The language Instinct إلى وأد المدرسة السلوكية التي أثرت -كما أشرنا آنفاً - بشكل لافت في مسار الدرس اللساني منذ أوائل ثلاثينيات القرن الماضي. ينظر السلوكيون إلى اللغة الإنسانية باعتبارها سلوكاً تحكمه مثيرات الهيئة الخارجية للغة. بمعنى آخر، لا تعدو اللغة في نظرهم أن تكون مجرد

(عادات كلامية مكتسبة) خاضعة لما يسمى بـ"قانون الإشراف. ومن هنا، تصبح اللغة عندهم شكلاً من أشكال السلوك الإنساني كالأكل والنوم. بل وأبعد من ذلك تعتبر هذه النظرية السلوك اللغوي للإنسان شبيهاً بالسلوك الحيواني، فكلاهما سلوك آلي ميكانيكي خاضع لثنائية: المثير والاستجابة (ينظر بلومفيلد Bloomfield، ١٩٣٣؛ والوافي، ٢٠٠٥).

ومن بين أبرز الدراسات السلوكية التي انتقدها تشومسكي نظرية "بلومفيلد" السلوكية التي أشرنا لها آنفاً، حيث اعتبر اللغة نتاجاً آلياً واستجابة كلامية لحافز سلوكي ظاهر، أي أنها جزء من السلوك الإنساني، وعلى هذا الأساس حاول تفسير الحدث الكلامي من منظور سلوكي بحت. وقد أطلق بلومفيلد على المنهج الذي اتبعه في دراسة اللغة اسم "المنهج المادي أو الآلي"، وهو منهج يفسر السلوك البشري في حدود المثير والاستجابة على غرار ما تقوم به العلوم الفيزيائية والكيميائية في اعتمادها في تفسير الظواهر على تتابعات العلة والأثر (ينظر بلومفيلد Bloomfield 1933: 22-23، 139، مؤمن ٢٠٠٥ : ١٩٥). كذلك انتقد تشومسكي (١٩٥٩، ١٩٧٠) نظرية "سكينر" Skinner^(٢٠) من خلال كتابه "السلوك اللغوي" الذي أكد فيه على أن مفهوم التعزيز يشكل الفكرة المركزية في مسألة اكتساب اللغات، إذ تتدخل البيئة المحيطة بالطفل (المدرسة، الأسرة، المجتمع، الشارع...) عن طريق قيامها بعمليات التعزيز المتجلية في إمداد الطفل بالمعطيات اللغوية الخاضعة للإعادة والترديد والمحاكاة ثم التصحيح من

(٢٠) يعد سكر راند هذه المدرسة السلوكية، وقد حوى كتابه "السلوك اللغوي" (١٩٥٧) محاولاته بناء نظرية جديدة في التعلم اللغوي. وهو معروف بتجاربه على السلوك الحيواني وما يعرف بـ"صندوق سكر" والذي استطاع أن يساهم في تطوير التعليم عن طريق التعليم المبرمج وأدوات التعليم الأخرى (بتصرف من الموسوعة الحرة على الانترنت).

أجل تثبيتها وترسيخها في ذهنه بوصفها عادات كلامية محصلة^(٢١) (ينظر محاسب، ٢٠٠٨).

وقد طعن تشومسكي (١٩٥٩) في مفهوم العادة نفسه. وبين أن مفهومي المثير والاستجابة هما مفهومان أجوفان؛ فنحن لا نستعمل اللغة استجابة لمثير سلوكي محدد وواضح. وإنما ما يتعلم بالفعل هو قواعد تحويلية تعطي القدرة للمتحدث على توليد أنواع يصعب حصرها من الجمل الجديدة ذات الطابع النحوي. أي أن ما يتعلم ليس سلسلة من الكلمات في حد ذاتها، وإنما يتعلمها الفرد بوصفها مفاهيم تمثل فئة بعينها تنتمي إليها هذه المفاهيم.

ومن هنا، يرى تشومسكي أن اللغة ميزة من ميزات الجنس البشري، وأن تعلمها لا يرتبط بذكاء الإنسان؛ لأنها ملكة لغوية Language Faculty خاصة بالبشر دون سواهم. وما يدل على كونها ملكة أنها لا ترتبط بدرجة ذكاء الإنسان الذي نجد عنده تمكناً من اللغة لا يستطيع أي قرد من القردة العليا إحرازه، وإن تفوق هذا القرد على إنسان معتوه في القدرة على حلّ المشاكل وأي سلوك تكييفي آخر. وحول هذا يقول تشومسكي (١٩٧٢: ١٠١): "يتوجب على كل شخص يهتم بدراسة طبيعة

(٢١) لخص ميشال زكريا (١٩٨٣: ٧٣) تعريف اللغة من وجهة نظر السلوكيين بأنها "مجموعة عادات صوتية يكتفيها حافر البيئة، فلا تتعدى برأيهم، كونها شكلاً من أشكال الحافز"، والاستجابة لهذا الحافز تتكون عندما يسمع متكلم اللغة "جملة معينة أو يشعر بشعور معين، فتحصل عنده استجابة كلامية من دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأي شكل من أشكال التفكير. فالاستجابة الكلامية مرتبطة بصورة مباشرة بالحافز، ولا تتطلب تدخل الأفكار أو القواعد النحوية". وفي المقابل فإن اللغة عند تشومسكي - كما سنعرف لاحقاً - عملية إبداعية، وذلك أنّ كل متكلم بلغة هي لغته الأم يستطيع أن يركب منها ما لا نهاية لعدده من العبارات، والجمل، دون أن تكون هذه الجمل قد ذكرت له من قبل، ويستطيع كل متكلم بلغة من اللغات أن يفهم أيضاً ما لا يتناهى من العبارات، والجمل، بما في ذلك تلك التي لم يسمع بها من قبل. وهذا لا يعني أنّ اللغة بنية، لكنها في رأي تشومسكي بنية مفتوحة (endedless).

الإنسان وقدرته، بشكل من الأشكال، أن يأخذ بعين الاعتبار أن كل إنسان سوي يكتسب اللغة في حين أن القرد وإن بلغ حداً معيناً من الذكاء لا يمكنه أن يكتسب الأصول الأكثر تبسيطاً في اللغة".

وقد بين تشومسكي، بفضل هذا الفهم العقلاني للظاهرة اللغوية، "كيف أن المدرسة السلوكية لا تستطيع أن توضح لنا حقيقة السلوك اللغوي البشري؛ لأنها تسقط من حساباتها النظرية اعتبار الخصوصية اللغوية عند البشر والمتمثلة في كون اللغة البشرية نشاطاً ذهنياً وعقلياً بامتياز مرتبطاً بالعقل والإرادة" (غلفان وآخرون، ٢٠١٠: ١٠).

وقد استدل تشومسكي (١٩٦٥: ٢٥) على نظرية الفطرة اللغوية بالطريقة التي يتعلم بها الطفل اللغة، وجعلها حجة يستند إليها لدحض آراء السلوكيين. وفي هذا الصدد يقول: "واضح أن الطفل الذي اكتسب لغة ما قد طور في ذاته تصوراً داخلياً لتنظيم من القواعد ينصّ على كيفية تركيب الجمل واستعمالها وتفهمها [...] فيمكن القول إن الطفل قد نَمى في ذاته قواعد توليدية، وقد قام بعمله هذا من خلال ملاحظة المعطيات اللغوية الأولية التي يتعرض لها". فتعلم الطفل للغة، إذن، لا يشترط فيه أن يكون الذكاء عاملاً من عوامله، فالجميع يتعلم التكلم بلغته الأم بشكل فطري. فإن حبسه حابس عن تعلمها بشكل صحيح، فلا بد من أن يعود إلى عيب منعه من إنجاز أعمال ذهنية تعينه على استبطان القواعد اللغوية التي - كما يعتقد تشومسكي - يمتلكها الطفل في ذهنه خلقة على شكل كليات لغوية عامة تشترك بها اللغات الإنسانية. والطفل في ضوء النظرية التوليدية، ليس حاسوباً يكتفي بمعلوماته اللغوية، بل إن الفطرة اللغوية الموجودة عنده تساعده على إبداع غير محدود لصور لغوية من قواعد محدودة (ينظر حول شرح نظرية الفطرة اللغوية، زكريا، ١٩٨٦: ٧٦؛

والتمييز، ٢٠٠٣ : ٢٣). فالطفل يبدأ في سنّ معينة (سنة أو سنتين أو ثلاث) إنتاج جمل ، وما أن يكبر حتى يصبح في (الثامنة مثلاً) من عمره ، يكون قادراً على أن يعبر عما في نفسه من معانٍ مختلفة بجمل كثيرة لم يكن قد سمعها من قبل ، كما أنه يكون قادراً على التمييز الجمل السليمة من غير السليمة ، ويأتي إلى المدرسة ؛ كي يتعلم القراءة والكتابة ، وليس ليكون جملاً. إذن ، فالطفل لا يكتسب اللغة ويستعملها فحسب ، بل يكتشف في الوقت نفسه أن الكلام هو حقيقة قائمة بذاتها ، كما يمتلك المقدرة التي تساعد في عملية التواصل اللغوي مع أبناء مجتمعه (تشومسكي ، ١٩٦٥ : ٢٥ ؛ وينظر حول شرح رؤية تشومسكي في اكتساب الطفل للغة - عمارة ، ١٩٨٤ : ٥٥ ؛ زكريا ، ١٩٨٦ : ٤٨ ؛ ينظر التيمي ، ٢٠٠٣ : ٢٣).

وتبني تشومسكي نظرية الفطرة اللغوية في اكتساب اللغة الإنسانية ، على حساب منجزات المدرسة السلوكية - قاد إلى الإعلان عن ميلاد مرحلة جديدة من علم اللسانيات النفسية ، وآراء متقدمة في قضية اكتساب اللغة غيرت مجرى الدراسات اللسانية منذ منتصف القرن الماضي.

٤-١-١. الجذور الفلسفية لنظرية فطرية اللغة

لكي يدلل على فلسفته حول "فطرية اللغة" ، قام تشومسكي بقراءة لتاريخ الفكر الفلسفي منذ ظهوره على يد أرسطو وأفلاطون منذ العصر اليوناني إلى تطوره ونضجه في التاريخ الفلسفي الحديث على يد ديكرات وهمبولدت. ومن أبرز الأفكار الفلسفية التي استسقى منها تشومسكي تبنيه لنظرية "فطرية اللغة" ما يسمى في الدرس الفلسفي بـ"مشكل أفلاطون" المتعلق بإشكالية المعرفة ، والذي بلوره أفلاطون من خلال التساؤل التالي : "كيف تأتي أن تكون الكائنات البشرية رغم أن اتصالاتها بالعالم قصيرة وشخصية ومحدودة - قادرة على أن تعرف هذا القدر الكبير الذي تعرفه

فعلا؟" (تشومسكي، ١٩٩٣ : ٤٣، ترجمه م. فتيح). وتقوم إجابة هذا التساؤل على افتراض فطرية المعرفة التي لا بد أن تكون (قدرة) يمتلكها الفكر بيولوجيا، ليس عبر معارف جديدة يكتسبها، بل عبر اكتشاف معارف معطاة قبلا؛ وبذلك يكون أساس المعرفة السابق على الوجود ضرورة قبلية للتعلم، وتصبح اللغة الإنسانية - التي هي ضرورية للفهم والفكر الإنسانيين - وفق هذه الفلسفة، على شكل ملكة بيولوجية فطرية في العقل تتولد منها معرفة اللغة إذا ما قدمت لها التجربة اللغوية؛ وبذلك تتحول التجربة إلى نظام من المعرفة (المصدر السابق، ص ٤٤، وانظر الطيب، ١٩٩٧ : ٤٦ - ٤٧).

وقد أخذ تشومسكي، أيضاً، فرضية فطرية اللغة، كما أشرنا آنفاً، عن الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠)^(٢٢) الذي لم يفتأ يؤكد أهمية التفكير المجرد عند الإنسان بواسطة العقل لكونه آلة عامة يمكن استخدامها متى احتيج إليها لظرف طارئ، وبفضل هذا العقل يمكن للإنسان أن يتصرف حيث تعجز كائنات أخرى عن القيام بذلك. ومن هنا، يرى ديكارت أن الإنسان يختلف عن الحيوان في أن له عقلاً، وأن أهم خصائص هذا العقل إنتاج اللغة (ينظر تشومسكي ١٩٦٦، غلفان وآخرون ٢٠١٠ : ٥).

(٢٢) فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ"أبي الفلسفة الحديثة"، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصا كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى - ١٦٤١م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. وديكارت هو الأب الروحي لمذهب العقلانية في القرن ١٧م، وهو صاحب المقولة الشهيرة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود" (بتصرف عن الموسوعة الحرة على الانترنت).

كما تأثر (تشومسكي) بالعالم الألماني ولهام فان همبولدت W.Van Humboldt (١٧٦٧-١٨٣٥ م) ^(٢٣) الذي يرى " أن اللغة هبة ثمينة أو هي ملكة فطرية خاصة بالفكر الإنساني ، ويصر على اعتبارها أمراً أو قوة داخلية يتعذر على الباحث الوصول إلى أغوارها ، فاللغة أُبدعت دفعة واحدة ، بكامل عناصرها ، بفضل الطاقة الخلاقة التي كان يتمتع بها الإنسان في بدء الخليقة" (زكريا، ١٩٨٦ : ٢٧١). فرؤية همبولد مفادها "إن اللغة نتاج العقل ، وهي الصوت المنطوق الذي يعبر به المتكلم عن فكرة ، وهي -اللغة - نتاج عدد من العمليات الخلاقة العضوية غير الآلية تتم في الذهن ، ويظهر أثرها على السطح الخارجي بالأصوات والكلمات والجمل وبها يتم التفاهم بين المتكلم والسامع" (عمايرة، ١٩٨٤ : ٥٥) ؛ وما ذاك إلا لأن اللغة من وجهة نظره وسيلة إبداع وخلق لغوي بواسطتها يستطيع المتكلم أن يولد ما لا حصر له من الجمل انطلاقاً من قواعد محدودة العدد ؛ وذلك لأن اللغة في حد ذاتها ليست بناء تاماً ولكنها نشاط في مرحلة الإنجاز، وأن تعريفها لن يكون إلا تكوينياً ^(٢٤) (ولهام فان همبولد، ص ١٨٣ ، نقلاً عن غلفان وآخرين، ٢٠١٠ : ١٠).

ومما سبق يتضح جلياً، أن النظرية التوليدية تركز وتتأسس على منطلقات الفكر الفلسفي العقلاني لكل من أفلاطون وديكارت وهامبولدت. يقول تشومسكي تأكيداً للمنحى العقلي لنظريته : "إن النظرية اللغوية نظرية عقلانية حيث إنها تعنى

(٢٣) ولد (همبولد) سنة ١٧٦٧ م ، من عائلة بروسية في مدينة (بوسندم) التحق سنة ١٧٨٧ م بجامعة فرانكفورت) لكي يتخصص بالحماسة ، إلا أنه انصرف إلى دراسة فقه اللغة سنة ١٧٨٨ م بعد أن التحق بجامعة (Göttingen)، وأسس جامعة برلين سنة ١٨١٠ م ، (زكريا ١٩٨٣ : ٢٦٩-٢٧٠) .

(٢٤) قد ذكر تشومسكي في كتابه "تأملات حول اللغة Reflections on Language" نحوًا من رؤية همبولد هذه، حين أكد على أن نمو اللغة عند الإنسان شبيه نوعًا ما بنمو الجهاز الجسدي الإنساني وتحده، بالتالي، العوامل التكوينية (ينظر تشومسكي، ١٩٧٥).

باكتشاف الحقيقة العقلية الكامنة تحت السلوك الفعلي" (تشومسكي، ١٩٨٣: ٢٨،
ولزيد من النقاش حول المنحى العقلي للنظرية ينظر أحمد ١٩٨٩).

٤-١-٢. القواعد الكلية

قادت فرضية (الفطرة اللغوية) في اكتساب اللغة تشومسكي إلى نظرية أخرى
تمثل الحجر الأساس للنظرية التوليدية التحويلية، أعني بها نظرية القواعد الكلية^(٢٥)
Universal Grammar التي وصفها تشومسكي بمجموعة من المبادئ والحالات والقواعد
التي تمثل كل اللغات البشرية، أو ماهية اللغة البشرية، والتي تنطلق من الفرضية
التالية: "كل البشر يشتركون في جزء من معرفتهم اللغوية بغض النظر عن لغتهم الأم،
والقواعد الكلية هي هذه السمة المشتركة" (١٩٧٥: ٢٩، وينظر تشومسكي، ١٩٩٣:
٥٣، ترجمه م. فتيح).

ولأن هدف المدرسة التوليدية التحويلية الأساسي هو العمل على التمييز بين ما
يخص لغة معينة وبين ما يخص اللغات بصورة عامة؛ فقد قسم تشومسكي (١٩٧٠:
٧٣) القواعد الكلية إلى جزأين، أولهما: قواعد الكليات الشكلية (Formal Universal)
وهي عبارة عن مبادئ عامة تحدد صورة القواعد وشكلها وطريقة عملها من خلال
النظم النحوية لعدة لغات معينة. وقد عدّ تشومسكي "البناء الداخلي لأنحاء توليدية مثل
البناء الداخلي للنحو التوليدي التحويلي مرشحاً للكليات الشكلية" (بارتشت،
٢٠٠٤: ٢٨٦). والآخر: كليات مادية شاملة (Substantive Universal)، وهي عبارة
عن الفصائل والسمات التي تحدد نظاماً من العناصر التي تشكل المادة لوصف اللغات،

(٢٥) لمصطلح Universal Grammar ترجمات عديدة. يترجمه بعض اللسانيين العرب ترجمة حرفية بالنحو العالمي
كما فعل مازن الوعر (١٩٩٩)، بينما يترجمه اللساني البارز عبدالقادر الفاسي الفهري (٢٠٠٠: ٤٣)
ب"القواعد الكلية" أو "النحو الكلي"، وهو ما اخترناه في هذه الدراسة. وقد ترجمته ترجمة فائقة الصادقي
(٢٠٠٥: ١) إلى "القواعد العامة".

ويعنى أدق تمثل الخواص المشتركة بين اللغات. تلك الكليات المادية الشاملة التي لا تكتشف، من وجهة نظر تشومسكي، إلا من خلال تحويل التنوع الضخم للأبنية السطحية للغات إلى عدد قليل من الأبنية العميقة (الفصائل، والسمات، والوظائف، والقواعد) التي تبدو واحدة في معظم اللغات، إن لم يكن كلها (ينظر تشومسكي، ١٩٧٠، وبارتشت، ٢٠٠٤).

أما عن موضوع القواعد الكلية، فيجيب ميشال زكريا (١٩٨٦ : ٧٧) بأنها "تحتوي على كل المعلومات والقضايا التوليدية والتحويلية التي يأتي بها الطفل إلى مسار عملية اكتسابه اللغة، وبما أن اكتساب اللغة يقتضي تعلم فواعدها، بصورة ضمنية فإنه ينبغي أن تقوم القواعد الكلية بتحديد الشكل الذي تتخذه قواعد اللغة وأنواع القوانين التي تندرج فيها والنمط الذي تصاغ عليه هذه القواعد والعلاقات التي تشابك فيها"، ثم يضيف قائلاً: "ومن زاوية أخرى ومعادلة يمكن القول بأن القواعد الكلية تحتوي على المبادئ الكلية القائمة بصورة مشتركة ضمن كفاية متكلم أي لغة من اللغات الإنسانية، فهي صورة معبرة عن جوهر اللغة البشرية وتحتوي على المبادئ الدائمة والثابتة والقائمة ضمن الفكر الإنساني والتي لا تتغير نسبة لتنوع البشر" (المصدر السابق، ص ٧٨).

ويجدر التنبيه على أن تشومسكي، انطلاقاً من فرضية الفطرية اللغوية التي تحدثنا عنها سابقاً، يرى أن القواعد الكلية هي مدار الرحي لطبيعة هذه الفطرة والملكة اللغوية التي خص الله بها الجنس البشري؛ لأن الاستعداد الفطري في حقيقة الأمر لا يمكن أن يقوم إلا على تصور وجود جهاز اكتساب اللغة Linguistic Acquisition

Device الذي يحتوي بيولوجياً على القواعد الكلية^(٢٦). وتقريراً لهذه الفرضية يقول تشومسكي (١٩٧٥ : ٢٩) "إن القواعد الكلية هي التنظيم المؤلف من مبادئ وشروط تكون عناصر أو خصائص كل لغات العالم. ولا تقوم هذه الخصائص عرضاً، إنما بالضرورة، طبعاً، عنيماً، هنا، الضرورة البيولوجية، وليس المنطقية".

ولأهمية نظرية القواعد العامة، يلاحظ متتبع أعمال تشومسكي وأتباعه - أن البحث اللساني التوليدي كرس منذ نهاية السبعينات اهتماماته النظرية المنهجية بشكل واضح في القضايا التي يطرحها مشكل النحو الكلي؛ إذ اتجهت الأبحاث والدراسات التوليدية في السنوات الأخيرة نحو البحث عن القواسم المشتركة والمبادئ العامة التي تجمع اللغات البشرية^(٢٧). هذا في الجانب التنظيري البحث، أما في حقل اكتساب اللغة الثانية، فإن فرضية القواعد الكلية أصبحت محوراً أساسياً في تفسير كثير من القضايا التي من أهمها: لماذا لا يتمكن متعلمو اللغة الثانية من الراشدين بلوغ مستوى الكفاية الذي يمتلكه الناطق الأصلي؟ ومعلوم أن هذا التساؤل ونظائره أدخلت اللسانيات النفسية واكتساب اللغة الثانية في قضية جدلية مثيرة هي "الفترة الحرجة critical period.^(٢٨)

(٢٦) يصفها تشومسكي (١٩٨٦ : ٣) بأنها "المكون الغريزي في العقل البشري الذي ينتج لغة ما بالتفاعل مع الخبرة المتوفرة، وهي وسيلة تحول الخبرة إلى نظام معلومات متحصلة: معلومات لهذه أو تلك من اللغات البشرية".

(٢٧) يلاحظ ذلك في عقد المؤتمرات السنوية للنحو التوليدي من مثل مؤتمر GLOW الذي لا يزال يعقد منذ أكثر من ثلاثين سنة.

(٢٨) أود أن أشكر أحد الفاحصين على إفادته هذه بخصوص دور فرضية "القواعد الكلية" في اكتساب اللغة الثانية.

٤-١-٢-١. أثر نحو بورت رويال في القواعد الكلية

وإذا كانت فرضية "الفطرية اللغوية" قد تأثرت بأفكار الفلاسفة العقلانيين من أمثال ديكرت وهامبولت كما وضح سابقاً، فإن فرضية "القواعد الكلية" تأثرت هي الأخرى بالفكر الفلسفي العقلاني لما يعرف في تاريخ الدراسات اللسانية الحديثة بـ"نحو بورت رويال" Port-Royal Grammar الذي انتشرت مفاهيمه عندما ألف نحاته كتابهم الذائع الصيت: "النحو العام والعقلي" General and Rational Grammar الذي ألفه سنة ١٦٦٠م كل من أنطوان أرنولد Antoine Arnauld و كلود لانسلو Claude Lancelot (غلفان وآخرون، ٢٠١٠: ٧).

وينطلق التصور النحوي لمدرسة بورت رويال "في إطار افتراض فكري يستمد أصوله من الفلسفة العقلانية عند ديكرت ومفاده وجود تطابق تام وكامل بين البنيات المنطقية والبنيات اللغوية". وذلك لأن "اللغة في عرف التصور العقلاني ليست سوى تعبير منطقي عن الفكر. فاللغات رغم اختلافها على مستوى القواعد التركيبية تشترك في كونها تتوافر على بنيات منطقية وعقلية عامة مشتركة بين البشر" (المرجع السابق، ص ١٠).

وقد أقر تشومسكي في كتابه "اللسانيات الديكارتية" (١٩٦٦: ٤٢) بأن كثيراً من الأفكار والمصطلحات النحوية للنحو التوليدي يعود الفضل في وجودها لنحاة مدرسة بورت رويال. فقد أخذ تشومسكي عنهم مفهوم التحويل، والتوليد، والبنية العميقة، والبنية السطحية، وطريقة التحليل الشجري، وكلها مفاهيم ستأتي الإشارة إليها في ثنايا هذا البحث عند الحديث عن دور فرضية "نظامية اللغة" في فهم كيف يبذل العقل اللغة في المبحث ٦.

٤-١-٣. الكفاية اللغوية والأداء الكلامي^(٢٩)

أراد تشومسكي بتبنيه القول بفطرية اللغة الإنسانية والقول بوجود القواعد الكلية في العقل البشري، أن يُقَدَّ لمفهوم "نظامية اللغة" ببعديها عند دي سوسير، ولكن عبر بمصطلحات خاصة أكثر عمقاً، وأدقّ دلالة. لقد عمق تشومسكي من مفهوم دي سوسير للغة باعتبارها بنية داخلية، وباعتبارها عملاً منجزاً من خلال مفهومي الكفاية اللغوية Linguistic Competence، والأداء الكلامي Performance. يقوم مفهوم الكفاية اللغوية على الفلسفة التالية: فكرة مفادها أن كل إنسان يملك معرفة ضمنية بقواعد لغته، وهي - أي تلك المعرفة الضمنية - بمثابة ملكة فطرية لا شعورية تجعله يعبر بلغته التي اكتسبها من محيطه اللغوي تعبيراً يمكنه من فهم عدد غير متناه من جمل هذه اللغة وصياغته، ولو لم يسبق له سماعه من قبل. يتم للإنسان ذلك، وفق قواعد معينة يكتسبها فطرة ضمن اكتسابه للغته الأم (انظر على سبيل المثال تشومسكي، ١٩٦٨ : ١٠٦). ويتوصل إلى هذه الكفاية اللغوية عبر ما سماه تشومسكي بـ"الحدس اللغوي" الذي به يؤلف متكلم اللغة مجموعة من القوانين التي بها يستطيع الحكم بصحة الجمل النحوية من عدمها (تشومسكي، ١٩٨٧). والحدس اللغوي عند تشومسكي جزء من الكفاية اللغوية المثيرة للاهتمام، وتكمن أهميته في تمكين الباحث اللساني من "ملاحظة المسائل اللغوية المثيرة للاهتمام، واستنباط القوانين اللغوية الكامنة ضمن الكفاية اللغوية" (زكريا، ١٩٨٦ : ٣٨).

(٢٩) كما أشار مصطفى غلفان في كتابه الفذ عن اللسانيات التوليدية (شاركه في التأليف حافظ علوي، ومحمد الملاخ) (٢٠١٠ : ٤١، هامش ١)، تُرجمت هذه الثنائية بترجمات مختلفة في البحوث اللسانية العربية التي تناولت النظرية التوليدية. فمثلاً هناك من يترجم الكفاية اللغوية بالكفاءة أو القدرة أو الأهلية (اللغوية)، وهناك من يترجم الأداء بالإنجاز أو التحقيق أو التنفيذ (الكلامي) وغيرها.

وتشومسكي في مفهوم الكفاية اللغوية يشير ضمناً إلى مفهوم "اللغة الداخلية"^(٣٠) التي تتمثل عنده في فكرة البنية في عقل المتكلم، غير أن هذه الكفاية اللغوية، عنده، ليست مقدرة تفسيرية بقدر ما هي مقدرة توليدية؛ لذلك كانت الفكرة الأساسية التي توجه المنهج التوليدي هي سمة الإنتاجية في اللغة التي بمقتضاها يستطيع المتكلم أن ينتج جملاً غير محدودة من وسائل محدودة، وأن يفهم جملاً جديدة غير متناهية لم يسبق له أن سمعها من قبل، وأن يميز بين الجمل النحوية وغير النحوية (ينظر علي، ٢٠٠٩).

أما مفهوم الأداء الكلامي Performance، المقابل للكلام عند دي سوسير، فهو الاستعمال الفعلي للكفاية اللغوية، أي أن الأداء هو التنفيذ العملي للكفاية اللغوية التي تقوده ضمناً (تشومسكي، ١٩٦٧: ١٢٦). وذلك لأنه "في الأداء يعود متكلم اللغة بصورة طبيعية إلى القواعد الكامنة ضمن كفايته اللغوية، كلما استعمل اللغة في مختلف ظروف التكلم" (زكريا، ١٩٨٦: ٣٣). غير أن الأداء قد لا يعكس كامل الكفاية اللغوية؛ إذ قد توجهه ظروف وعوامل غير لغوية، من مثل المقام والظروف التي ينجز فيها القول، والحالة النفسية للمتكلم وما يعتره من نسيان وإعياء، وكذلك التفاوت الحاصل في المستوى الثقافي للأفراد (تشومسكي، ١٩٧٠: ١٣).

(٣٠) اللغة الداخلية I-Language مصطلح آخر جاء به تشومسكي ليؤكد على فكرة المفكريسبرسن Jespersen في أن هناك فكرة ما عن البنية في عقل المتكلم توجهه في صياغة جملة هو، وهي عبارة عن بنية داخلية تشكل عنصراً من عناصر عقل الشخص الذي يتكلم اللغة، يكتسبه المتعلم ويستخدمه المتكلم - المستمع المثالي the speaker-hearer وهي مكون أساس من النحو الكلي Universal Grammar. في المقابل يطلق تشومسكي مصطلح اللغة الخارجية E-Language على اللغة التي يتحدث بها الشخص، أي "اللسان" في مصطلحات دي سوسير (ينظر تشومسكي ١٩٩٣: ٨٠-٨١، ترجمة م. فتيح).

وتركز النظرية التوليدية على الكفاية اللغوية في سبيل المعرفة الدقيقة بالأداء الكلامي، لأنها - كما ذكرنا آنفاً - هي النظام الضمني الذي يسير عليه الأداء ويتبعه المتكلم في أداء قواعد لغته. ومن هنا ينبغي أن يركز الدرس اللساني على "الكفاية اللغوية بالذات، وليس على المظاهر الكلامية التي لا تعدو كونها انعكاس هذه الكفاية. ولا بد لللساني] من أن يتقبل التجريد بالنسبة إلى معطيات الأداء الكلامي عندما ينبغي دراسة آلية اللغة التي تتيح للإنسان تكلم لغته فيستثني بالنتيجة المظاهر غير اللغوية والمرافقة هذا الأداء" (زكريا، ١٩٨٦ : ٣٦).

٥- نظامية اللغة بين دي سوسير وتشومسكي

من خلال العرض السابق لأبعاد نظرية نظامية اللغة عند دي سوسير وتشومسكي، نستطيع القول إن تشومسكي يتفق مع دي سوسير في تصوير اللغة langue على أنها نظام داخلي يكمن في شكل بنية في عقل المتكلم، يكون الكلام parole الطريق الوحيد لإخراجها "إلى حيز الوجود الملموس" (دي سوسير، ١٩٨٥ : ٣٥٦). وهنا نجد تطابق مفهوم الكفاية اللغوية مع مفهوم اللغة، ومفهوم الأداء مع مفهوم الكلام. وقد صرح تشومسكي بذلك كثيراً في مؤلفاته الأولى التي كان همه الأول فيها أن يربط كل نقطة ارتباط ممكنة بين عمله وعمل دي سوسير (انظر على سبيل المثال تشومسكي ١٩٦٣، وانظر جوزيف Joseph، ٢٠٠٩).

لكن السؤال الذي ينبغي أن يسأل الآن هو ما الجديد الذي جاء به تشومسكي وأضافه إلى مفهوم "نظامية اللغة"، وبه اختط لنفسه مساراً يختلف عن مسار سلفه دي سوسير؟ وتكمن إجابة هذا السؤال في محاولة تشومسكي لمساواة مفهوم اللغة langue مباشرة مع "النحو الذي يولد جملاً مع أوصاف بنوية؛ وهذا يعني، ... الحدس

اللساني للمتكلم، ومعرفته باللغة" (١٩٦٣ : ٣٢٩). بينما نجد عند دي سوسير - وفقاً لجوزيف (2009 Joseph) - عمليات تشكيل الجملة لا تعود إلى نظام اللغة مطلقاً؛ لأن هذا النظام مقصور على وحدات لسانية من مثل الأصوات والكلمات، وربما بعض العبارات ثابتة الدلالة وعدد صغير من الأنماط شديد العمومية، وآليات تكوين الجملة هي من نواحٍ أخرى حرة من أي إكراهات مفروضة من البنية اللسانية ذاتها. وعليه، ليس تكوين الجملة عند دي سوسير مسألة تخص مفهوم اللغة *langue* على نحو صارم، ولكنها بالأحرى تُنسب إلى ما سماه بالكلام *parole*.

وإذا كان المفهوم السوسيري لمفهوم اللغة *langue*، أو "اللغة الداخلية" وفقاً لمصطلحات تشومسكي، بالغ الضيق؛ لأنه لا ينهض ظاهرياً بأعباء الاحتمال لهذه القدرة على الإبداع في اللغة (جوزيف، ٢٠٠٩)، فإنها عند تشومسكي ملكة ضمنية بقواعد اللغة؛ ولهذا فهي تتميز بخاصية الخلق والإبداع. غير أن هذا الإبداع اللغوي ليس واحداً عند متكلمي اللغة الواحدة. ولهذا السبب حاول تشومسكي التفريق بين نوعين من أنواع الإبداع اللغوي: (أ) الإبداع اللغوي المقنن *Rule-Governed Creativity*، و (ب) الإبداع الخارق للقواعد *Rule-Changing Creativity*، ويعني تشومسكي (١٩٦٤ : ٥٩ ؛ ١٩٦٦ : ٢٧، وانظر أوركس، ١٩٩٨ : ٩٥، غلفان وآخرين، ٢٠١٠ : ٤٢) بالأول الإبداع الذي تحكمه قواعد النحو في لغة ما، ويتعلق بإمكانية إنتاج وتوليد ما لا حصر له من الجمل النحوية في ضوء ما تسمح به قواعد اللغة النحوية، بينما يعني بالثاني الإبداع الخلاق الذي يتعلق بإحداث تغييرات متفاوتة الأهمية في القواعد اللغوية التي تتضمنها الكفاية اللغوية المشتركة بين أبناء اللغة الواحدة.

وبناء على ما سبق ، نجد تشومسكي ينأى بنفسه عن رؤية دي سوسير في تفسيره لنظامية اللغة في جانبيين واضحين كان لهما عظيم الأثر في تشكيل نظريته حول النحو التوليدي. الأول مناداته لإدراج علم التراكيب النحوية syntax ضمن مفهوم اللغة langue ، وليس ضمن مفهوم الكلام parole كما فعل دي سوسير. أما الثاني فهو الميزة الإبداعية للغة التي هي في نظره عملية توليدية فعالة في الذهن البشري قادرة على الخلق والإبداع.

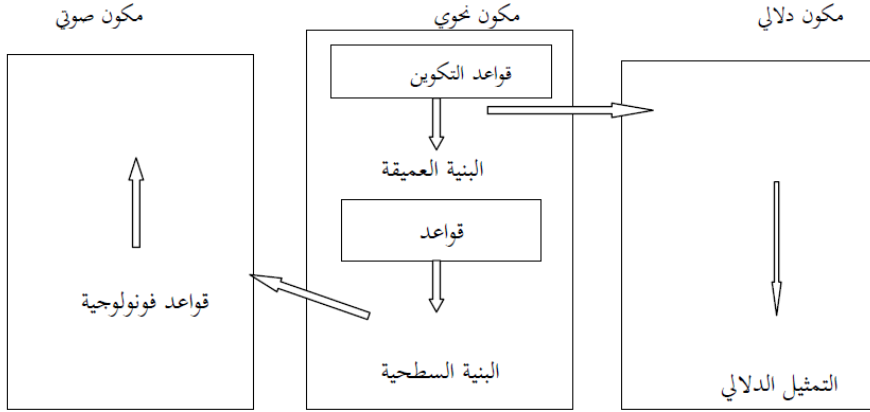
وانطلاقاً من هذه النظرة المختلفة لنظامية اللغة ، يحاول تشومسكي منذ منتصف القرن الماضي أن يقدم شرحاً منطقياً لدور تبني القول بنظامية اللغة في إرشادنا إلى الطريقة التي يبدع من خلالها العقل اللغة ، الأمر الذي نحاول إلقاء الضوء عليه في المبحث الآتي.

٦- الإبداعية اللغوية والخاصية النظامية للغة

قدم تشومسكي رؤيته حول نظامية اللغة في نظريته الشهيرة: نظرية النحو التوليدي التي كان المولد الحقيقي لها بين سنتي ١٩٦٠ و ١٩٦٥ ، عندما انتقد تشومسكي النموذج البنوي لدي سوسير ، والنموذج التوزيعي لبلومفيلد في مقوماتهما الوضعية المباشرة باعتبار أن هذا التصور لا يصف إلا الجمل المنجزة بالفعل ، ولا يمكنه أن يفسر عددا كبيرا من المعطيات اللسانية التي كان من أهمها بيان آلية عمل النحو في النظام اللغوي. فالنحو التوليدي ، الذي يتطابق عند تشومسكي (١٩٦٦) مع مفهوم اللغة langue عند دي سوسير ، كما أشرنا إلى ذلك في المبحث السابق ، هو "نظام قوانين يمكن أن يعاد استعمالها باستمرار للحصول على عدد غير محدود من البنى" (تشومسكي ، ١٩٨٣ : ٢٨). ومن هنا ، كان هدف تشومسكي الأول

هو وضع نظرية تكون قادرة على تفسير هذا النظام النحوي في عقل المتكلم، والقدرة الإبداعية لديه على إنشاء جمل لم يسبق أن سمعها من قبل كما وضّح سابقاً في المبحث ٤ - ١ - ٣. وقد أسمى تشومسكي الصورة الأولى من نظريته بالنظرية المعيارية Standard Theory. وفي هذه النظرية ذكر تشومسكي أهم أسس نظريته التوليدية، وهي أسس تمسك بأكثرها في نظرياته التطورية اللاحقة. كان من أبرز هذه الأسس تبني مفهوم البنية العميقة والبنية السطحية، وعد اللغة ملكة خاصة بالجنس البشري، والدعوة إلى البحث في نظرية النحو الكلي أو القواعد الكلية الذي تشترك فيها اللغات البشرية (ينظر غلفان وآخرون، ٢٠١٠: ١٩٦).

ولعل أهم ما تناوله تشومسكي في هذه النظرية هو اقتراح النموذج الأول للكيفية "التوليدية" التي يبدع العقل بها النحو، أي مكونات النحو وبناء القواعد كما يوضحه البناء التخطيطي التالي في (١) (بعد بارتشت، ٢٠٠٤: ٢٧٩):



المخطط رقم (١)

في البناء التخطيطي السابق، يفسر تشومسكي الآلية التي ينتج بها العقل الإنساني قواعد اللغة بافتراض ثلاثة مكونات بنيوية: نحوي ودلالي وصوتي، وتتخللها ما يسميه بالبنية العميقة والبنية السطحية.

(أ) المكون النحوي:

يولد المكون النحوي مجموعة غير متناهية من البنى التركيبية التي تحتوى على تمثيل دلالي يُسَمِّدُ من المكون الدلالي، وعلى تمثيل صوتي يُسَمِّدُ. ويتألف المكون النحوي من المكون الأساسي والمكون التحويلي. ويحتوي الأول على مجموعة قواعد بناء أو قواعد تكوين، بها تتخلق البنى العميقة التي تدخل المكون الدلالي، وتتلقى التفسير الدلالي منه، ومن ثم تحول إلى بنية سطحية بواسطة المكون التحويلي عندما تلتقي والتفسير الفونولوجي بواسطة قواعد المكون الفونولوجي. وعلى هذا، نجد أن البنية العميقة هي المسؤولة عن التفسير الدلالي للجمل، بينما البنية السطحية هي المسؤولة عن التفسير الصوتي. وبذلك يكون للبنية العميقة ربط مزدوج؛ إذ هي مدخل لقواعد التحويل التي تنشئ البنية السطحية، ومدخل لقواعد الإسقاط التي يحصل المرء عند تطبيقها على التمثيل الدلالي.

(ب) المكون الدلالي:

يحتوي المكون الدلالي على المعجم أو اللائحة بمفردات اللغة، وعلى قواعد إسقاطية تشكل قدرة المتكلم على الاستدلال على معاني الجمل من خلال معنى المفردات. يسند المعجم معنى أولياً إلى المفردات اللغوية، ويخصها بسمات صوتية وتركيبية ودلالية، ويتحدد معنى المفردات بما نسميه بالمدخل المعجمي. أما قواعد الإسقاط فتعرف بأنها تلك التي تربط بين الكلمات والبنى التركيبية، وتناسب هذه التسمية واقع التفسير الدلالي؛ وذلك لأن قواعد الدلالة تسقط المعنى على بنية معينة. يحتوي المكون الدلالي إداً على

المعجم أو اللائحة بمفردات اللغة، وعلى قواعد إسقاطية تشكل قدرة المتكلم على الاستدلال على معاني الجمل من خلال معاني المفردات.

(ج) المكون الفونولوجي:

يبحث المكون الفونولوجي في القواعد التي تصف الجملة بواسطة التمثيلات الصوتية المأخوذة من النظرية اللسانية العامة، ويتكون من المعجم الفونولوجي ومن القواعد الفونولوجية. يتكون الأول من لائحة من المورفيمات، ويخصص المورفيم من حيث التلفظ به، ومن حيث دلالاته وخصائصه التركيبية. أما الثاني، والمتمثل في القواعد الفونولوجية، فيتناول التغيرات التي تطرأ على المقطع الصوتي، وتحدد إجابة للتساؤلات التالية:

أي مقطع يتغير من الناحية الفونولوجية؟

كيف يتغير المقطع؟

في ظل أية شروط يتم هذا التغير؟

في سنة ١٩٧٢ عدل تشومسكي في النظرية المعيارية، وأصبح اسمها النظرية المعيارية الموسعة Extended Standard Theory. وكان الباحث على هذا التعديل "هو سعيه إلى إنشاء علم اللسانيات فرعاً لعلم النفس الإدراكي" (المرجع السابق، ص ٢٩٠).

وتتجلى هذه النظرية في كتابيه اللذين نشرهما عام ١٩٧٢ (ب) و (١٩٧٧)،

وهما على الترتيب (انظر قائمة المراجع الأجنبية):

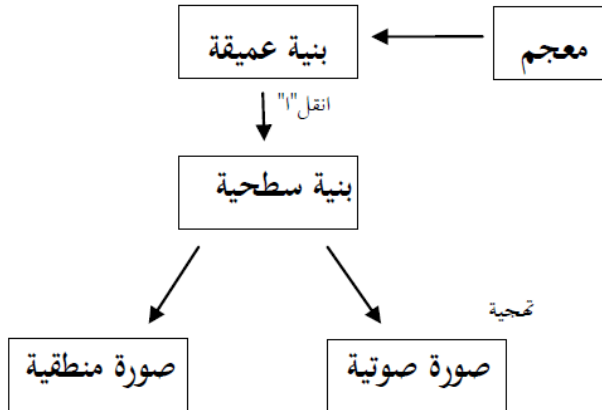
- دراسات في علم الدلالة في النحو التوليدي
Studies on semantics in generative grammar

- مقالات في الشكل والتأويل
Essays on form and interpretation

وقد بنى تشومسكي النظرية المعيارية الموسعة على الفرضيات التالية (تشومسكي

١٩٧٢ ب، ١٩٧٧، وينظر بارتشت ٢٠٠٤ : ٢٩٠؛ غلفان وآخرون ٢٠١٠ : ١٩٦):

- الإبقاء على مركزية المكون النحوي ودوره في التوليد.
- رفض بعض فرضيات النظرية المعيارية المتمثلة في أن التمثيلات العميقة للنحو هي تمثيلات منطقية دلالية.
- أسهام البنية السطحية في التأويل الدلالي للجمل ، بعد أن كان منحصرا في النظرية المعيارية في البنية العميقة فقط.
- وضع نظرية لتحليل البنية الداخلية لمكونات الجمل الكبرى (من خلال تقسيم الجملة إلى مركب اسمي ، ومركب فعلي ، وبينهما مركب زمني. وقد عرفت هذا النظرية مخطط اكس -وصلة X-Bar Theory.
- تلاشى مبدأ التحويل وأصبح اسم النظرية بالنظرية التوليدية. وقد قاد هذا إلى أن أصبح للمعجم أهمية بالغة ؛ لأنه "المحور الذي تتلاقى فيه المعلومات من مكونات أخرى ، وتتصل فيه بعضها ببعض" (بارتشت ٢٠٠٤ : ٢٩٢).
- المخطط رقم (٢) (بعد بارتشت "بتصرف" ٢٠٠٤ : ٢٩٣) يعرض آلية إنتاج النحو وفقاً لفرضيات نظرية المعيار الموسعة :



المخطط رقم (٢)

استمر تشومسكي في تبني هذه النظرة في نظرياته التي جاءت بعد النظرية المعيارية الموسعة من مثل نظرية المبادئ والوسائط^(٣١) Principles and Parameters التي بلورها تشومسكي في نظريتين مشهورتين: نظرية العمل والربط الإحالي Government Binding Theory and الممتدة ما بين ١٩٨١ و ١٩٨٥، ونظرية الحواجز أو العوائق Barriers التي رأت النور سنة ١٩٨١. لكن سنة ١٩٩٣، وأكثر تحديداً سنة ١٩٩٥، كانت تأريخاً لعهد جديد للنظرية التوليدية عندما أدخل تشومسكي تعديلات جديدة على نظريته، واقترح لها اسم البرنامج الأدنى Minimalist Program الذي يمتاز بالبساطة في التحليل والبعد عن التعقيد، باعتماد استنتاجات صورية قائمة على عدد محدود من الفرضيات القادرة على تغطية أكبر قدر من المعطيات والوقائع. وقد كان الباعث الأساس لتبني هذه النظرية الجديدة هو تلافي التعقيد الذي كان موجوداً في النظريات السابقة.

وباختصار، فإن البرنامج الأدنى ينطلق من مسلمات أساس أهمها (تشومسكي، ١٩٩٥، ٢٠٠١، وانظر رادفورد، Radford ٢٠٠٤؛ غلفان وآخرين، ٢٠١٠: ٣٦٥ وما بعدها؛ الفاسي الفهري، ٢٠١٠: ٦):

- النحو نسق ونظام كامل perfect system ذو تصميم أمثل optimal design ؛
- جهاز اللغة مصمم لكي تبلغه الأنساق الخارجية. وهذا يعني أن أنحاء اللغات الطبيعية تتناسب جيداً والأنساق الذهنية الأخرى التي تتفاعل معها، وخاصة أنظمة الفكر والنطق.

(٣١) يراد بالمبادئ مجموعة من المبادئ التي تشكل الخصائص الكلية لأجزاء اللغات الطبيعية، أما الوسائط فتمثل مظاهر الاختلاف بين الأجزاء، فالتقابل بين المبادئ والوسائط يجسد تقابلاً في مستوى من مستويات الاستدلال بين ما هو كلي وما هو خاص.

- تستجيب الملكة اللغوية لمتطلبات الأنساق الوجيهة حيث لا تتضمن سوى المعلومات التي تحتاجها هذه الأنساق. ومن هنا، تقلصت مستويات التمثيل في البرنامج الأدنوي مقارنة بالنظريات التوليدية السابقة؛ فاخفت البنية السطحية والبيئة العميقة، وانتقلت صلاحياتهما في التمثيل إلى الصورة الصوتية والصورة المنطقية، كما سيأتي توضيحه في المبحث الموالي.

- جميع القيود والمبادئ والتمثيل والاشتقاقات مَصُوغة بطريقة أدنوية minimal، وخاصة لمقياس الاقتصاد^(٣٢) economy criterion.

فالبرنامج الأدنوي، إذن، هو محاولة لتبسيط النظرية التوليدية إلى أبعد حد سواء في مستوى الصياغة الصورية أو عدد مستويات التمثيل النحوي؛ بغية تقديم تفسير أبسط وجديد لآلية نظامية اللغة، المتمثل عند تشومسكي كما أسلفنا في "النحو". يقول عبدالقادر الفاسي الفهري (٢٠١٠: ٦) في تصديره لكتابه القيم: (ذرات اللغة العربية وهندستها: دراسة استكشافية أدنوية): "ويمثل البرنامج الأدنى أحد أبرز التشكلات الجديدة للبحث في تحديد معالم المعرفة اللغوية، أو خصائص النحو باعتباره عضواً ذهنياً، أو ملكة بشرية تدخل دراستها ضمن دراسة أعم هي دراسة المعرفة cognition".

٦-١. آلية إبداع العقل للنحو في البرنامج الأدنوي

من أبرز التجديدات التي جاء بها البرنامج الأدنوي - اختزال مستويات التمثيل إلى مستويين، هما الصورة المنطقية والصورة الصوتية. ويرجع سبب هذا الاختزال إلى أن الملكة اللغوية في تفاعل مع الأنساق العضوية الخارجية، وخاصة

(٣٢) "بمعنى أن أي خطوات زائدة أو إسقاطات أو رموز أو وظائف أو تمثيلات، ليست ذات ضرورة للربط الأمثل بين الصوت والمعنى تصبح غير مرغوب فيها" (الفاسي الفهري ٢٠١٠: ٦).

النظام النطقي الإدراكي articulatory-perceptual، الضروري للنطق، والنظام التصوري القصدي conceptual-intentional، الضروري لمفصلة المعنى. فالضرورة التصورية conceptual necessity، تقتضي هذا الحصر، ونجاعة الحوسبة تقتضي التقدير. ونتيجة لهذا، يصبح التمييز بين تمثيل عميق للبنية، وآخر سطحي مغللاً بشروط المقروئية legibility في مستوى الواجهة interfaces مع الأنساق المذكورة" (الفاسي الفهري، ٢٠١٠: ٦، ولمزيد شرح ينظر غلفان وآخرون، ٢٠١٠).

ومن أبرز التجديدات التي جاءت بها المقاربة الأدنوية أن النحو بوصفه نظاماً يتكون من مكونين هما المعجم Lexicon والنسق الحاسوبي Computation (ينظر تشومسكي، ١٩٩٥: الفصل ٣). ويتكون المعجم (الذهني) من كلمات اللغة مقرونة بخصائصها الفرادية التي تخول هذه الكلمات من دمجها في النسق الحاسوبي مع ما يشترك معها في نفس الخصائص التي فقط يمكن التنبؤ بها. "مثلاً من خصائص الاسم ترميز السمات الصرفية مثل الجنس والعدد أو الشخص، وبما أن هذه السمات متنبأ بها انطلاقاً من الطبيعة المقولية للأسماء [+س]، لا نحتاج إلى التنصيص عليها، باستثناء الوحدات المعجمية الاسمية التي تحمل سمة اسمية فرادية مثل إبل وقوم التي تحمل سمة الجمع بشكل فرادي، ولا يمكن التنبؤ بها من الصورة اللفظية للكلمة" (غلفان وآخرون، ٢٠١٠: ٣٦٧). فصفة الاسمية في (امرأة) سمة مقولية ملازمة، فهي من السمات المؤولة interpretable، أما السمات الإعرابية والتطابقية مثل الجنس والعدد والشخص، فهي ضمن اختصاص المبادئ العامة؛ ولذلك فهي غير مؤولة uninterpretable، وتحتاج إلى تأويل من "النسق الحاسوبي" بعد أن تمر بـ "التعداد Numeration" الذي من أدواره توفير السمات التي لا يمكن التنبؤ بها من مثل سمة الإعراب لكلمة "امرأة" التي يخلو منها المعجم كما أسلفنا (حول تفصيل آلية عمل

المعجم ينظر تشومسكي، ١٩٩٥، ٢٠٠٠، ٢٠٠١، وبالعربية ينظر غلفان وآخرون ٢٠١٠: ٣٦٧ وما بعدها). في الجدول التالي في (٣) حصر للسّمات المؤولة وغير المؤولة وفقاً للبرنامج الأدنى:

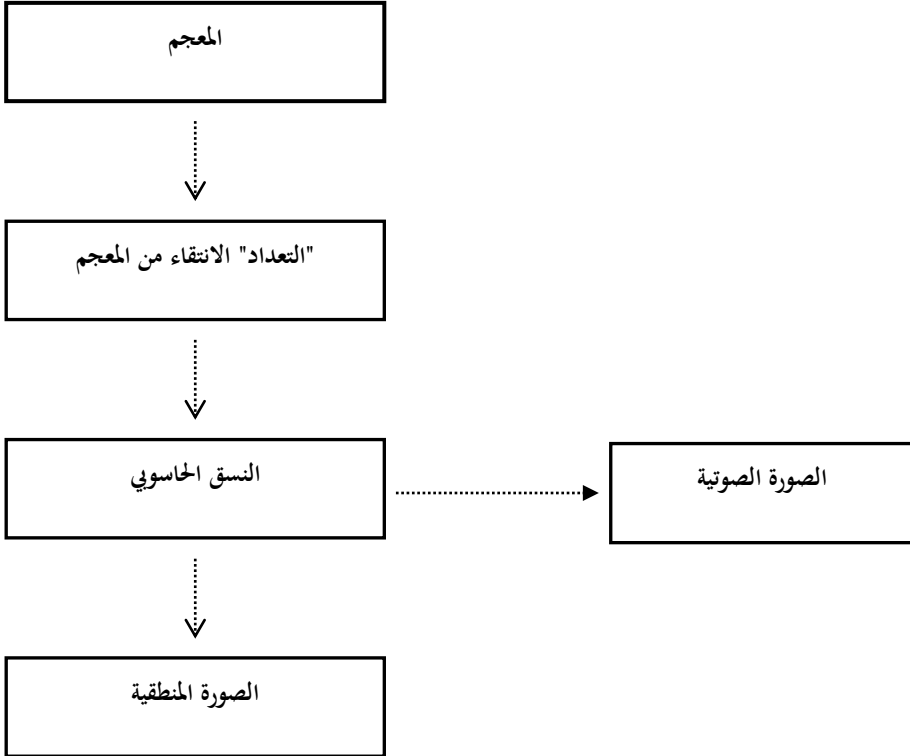
الجدول رقم (٣).

السّمات غير المؤولة	السّمات المؤولة
- السّمات الصرفية في الزمن في المركب الزمني - سمة الزمن في الفعل - سّمات الإعراب في الأسماء	- السّمات الصرفية في الأسماء- - سمة الزمن في المركب الزمني- - سمة الإعراب في المركب الزمني -

أما ما يخص النسق الحاسوبي Computation، فهو آخر نظام اقترحه تشومسكي في برنامجه الأدنى مفسراً بها آلية نظامية اللغة المتمثلة عنده في "النحو" كما أشرنا سلفاً. فإذا كان إبداع النحو يتخلق في المعجم والتعداد ابتداءً، فإنه يتشكل كلياً في النسق الحاسوبي في العقل الباطن قبل أن ينجز في الحيز الملموس في صورة الأداء الكلامي. ويتكون النسق الحاسوبي من عمليات حاسوبية أساسية صغرى تحكمها مبادئ الاقتصاد Economy Principles في الاشتقاق والتمثيل ومبدأ التأويل العام Full Interpretation. وهذه العمليات هي على الترتيب: انتق Select، ضم Merge، طابق Agree، انقل Move (تشومسكي، ١٩٩٥: ٢٢٦، ولزيد تفصيل ينظر غلفان وآخرون، ٢٠١٠، الفصل ١١). وبعد تمام هذه العمليات، يفضي النسق الحاسوبي إلى "التهجئة Spell-out" التي بها تخرج الجملة منطوقة في "الصورة الصوتية PF"، ومكتسبة الدلالة في "الصورة المنطقية LF".

وهكذا نرى تشومسكي في برنامجه الأدنى تخلى كثيرا عن المبادئ التي بنى عليها نظرياته التوليدية السابقة في سبيل تقديم نظرية أشمل وأدق في النحو الكلي، يهدف من خلالها إلى وضع السمات النحوية العامة المشتركة للغات الخاصة واللغة البشرية في الوقت ذاته. والبرنامج الأدنى وإن بدا أنه ثورة على نظرياته السابقة، إلا أنه يبقى متماشياً مع الفرضيات الكبرى التي انطلقت منها النظرية التوليدية في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي كما وضح في مبحث ٤.

ولآلية إبداع العقل للنحو في البرنامج الأدنى يقترح تشومسكي (١٩٩٣)،
١٩٩٥، ٢٠٠٠، ٢٠٠١) المخطط البياني في (٤) أدناه:

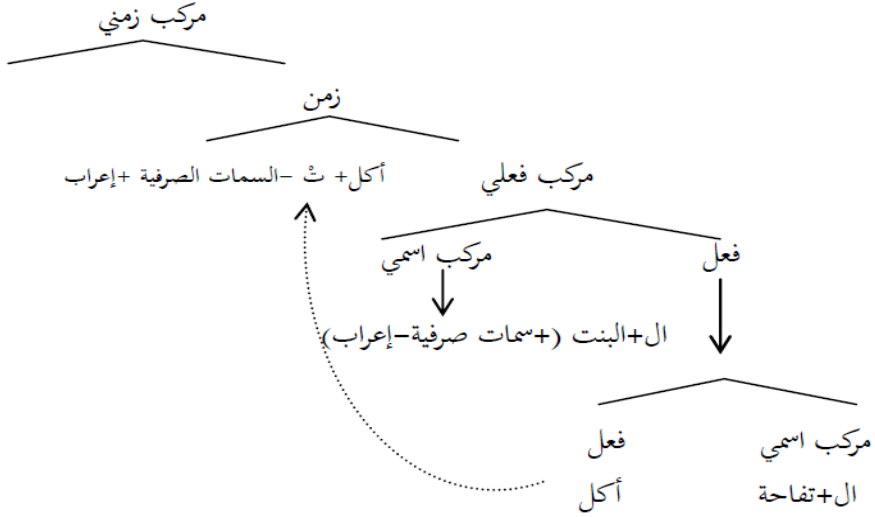


المخطط البياني (٤)

وأخيراً، وليبيان نظامية عمل النحو في العقل كما في (٤)، تأمل الجملة في (٥) أدناه:

(٥) أكلتُ البنتُ التفاحةَ.

فمجموع كلمات الجملة في (٥) موجودة في المعجم على شكل كلمات: (أل ٢ - تاء التأنيث - بنت - تفاحة - أكل)، وبالسّمات المؤولة فقط المذكورة في (٣). أما السّمات غير المؤولة فهي من مهمة (التعداد) الوسيط بين المعجم وبين النسق الحاسوبي كما وضّح أعلاه في (٤). عند انتقال هذه الكلمات بسّماتها إلى النسق الحاسوبي، تبدأ عملية بناء الجملة (من آخرها إلى أولها) من خلال العمليات الحاسوبية التي ذكرنا: انتق - ضم - طابق - انقل - ثم أخيراً تهجية. ف"أل" التعريف لأن فيها خاصية الاسم لا بد أن تنتقي اسماً لتضم معه عبر عملية "ضم" التي تقرن فقط زوجاً من الموضوعات التركيبية، وهنا نحصل على "التفاحة"، التي تكون فيها خاصية الإعراب غير مؤولة؛ مما يتطلب ضمها مع الفعل "أكل" ليتكون المركب الفعلي. أما (البنت) بعد ضمها مع أداة التعريف تصبح مركباً اسماً مؤولة سّماته الصرفية، بينما يحتاج إلى سمة الإعراب التي سيعطيها لها "الزمن" في المركب الزمني الذي يحتاج إلى من يقيّم سّماته الصرفية. بعد عملية مطابقة وتبادل للسّمات تصبح السّمات الصرفية التي في الزمن مقيمة ومؤولة، وسمة الإعراب الرفع في الفاعل "البنت" مؤولة ومقيمة أيضاً. يأتي الآن دور عملية "انقل" الإجبارية لتنقل الفعل (أكل) إلى الزمن في المركب الزمني حتى يُضم مع تاء التأنيث، ويكتسب سمة الزمن (الماضي)، إضافة للحصول على الترتيب الأساسي لنظام الرتبة في العربية فعل + فاعل + مفعول. البناء التشجيري في (٦) يوضح عملياً عملية التمثيل والاشتقاق في المثال (٥).



البناء التشجيري (٦)

٧- نظامية اللغة والتراث العربي

يحاول هذا المبحث إلقاء الضوء على نظرية "نظامية اللغة" في التراث العربي من جهة. ومن جهة أخرى يحاول تقديم مقترح حول سبل الاستفادة من نظرية "نظامية اللغة" في نموذجها التشومسكي في تحفيز متعلم النحو العربي؛ ليستعمل ملكته اللغوية في فهم واستيعاب هذا النظام.

٧-١. نظامية اللغة في النظرية النحوية العربية

إن الناظر في تاريخ النظرية النحوية التراثية، لا سيما في بداياتها، يلحظ إدراكها لدور الكفاية اللغوية لتكلم اللغة في المعرفة الضمنية بقواعد لغته. فمصطلح: الكفاية اللغوية، وإن لم يرد في أدبيات النحو العربي القديم، إلا أن نقاشات مؤسسه سيبويه للتراكيب النحوية يوحي أن أوائل منظري هذه النظرية كانوا ينظرون إلى النحو باعتباره بنية داخلية في عقل المتكلم، تقوده عملية إدراك عقلي تستبطن قواعده، وتخرجها عبر

الكلام إلى الحيز الملموس. وما نجده من نصوص في كتاب سيويه يعكس مدى الإدراك لنظامية اللغة في الفكر النحوي العربي المتقدم. فقد عقد سيويه (ت ١٨٠ هـ - ٧٩٦ م) (الكتاب: ج ١/ص ٢٥-٢٦)^(٣٣) باباً أسماه: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، وفيه يقول: "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أيتك أمس، وسأتيك غداً. و أما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أيتك غداً وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشريت ماء البحر ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكبي زيداً يأتيك وأشبه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس".

في نص سيويه هذا إدراك بأن متكلم اللغة لديه قدرة ومعرفة ضمنية تخوله بأن يعرف ما الصالح المتوافق مع قواعد لغته نحواً ومعنى من عدمه، كما أنه لديه من الكفاية اللغوية ما يستطيع بها حصر "الصورة المفترضة للأشياء أو التراكيب الممكنة من مجموع من الكلم، تتولد عنها جمل بمجموعة من الأعمال، أو التغييرات، بغض النظر عن كونها صحيحة أو غير صحيحة" (العايد ٢٠٠٧). لكنه، أي متكلم اللغة المثالي، لا يستعمل إلا ما يصح استعماله من تلك التراكيب والجمل النحوية وفقاً لحدسه اللغوي كما وضّح في المبحث ٣ - ٣.

واعتراف سيويه في نصه السابق ضمناً بوجود الكفاية اللغوية عند متكلم اللغة، يستلزم منه، وإن لم يُصرّح به، القول بفطرية اللغة وأنها ملكة مقصورة على الجنس البشري كما نادى بذلك تشومسكي كما مر بنا في المبحث ٤ - ١ - ١. لكن في

(٣٣) فضلٌ عند توثيق كتب التراث عدم ذكر سنة طباعة الكتاب، والاكتفاء بذكر اسم الكتاب والمؤلف حتى لا

يبدو غريباً ذكر سنة حديثة جانب اسم مؤلف تراثي.

التراث العربي من سبق تشومسكي في القول بفطرية اللغة كابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الذي قال بعد أن عرف اللغة بـ"عبارة المتكلم عن مقصوده": "وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان" (المقدمة، ص ١٠٥٦). وفي موضع آخر يقول: "اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني. وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكم. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة؛ للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال - بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع..." (المقدمة، ص ١٠٧١).

وهكذا يمكننا القول إن "نظامية اللغة"، أي كون اللغة نظاماً داخلياً ذا بيئة في عقل المتكلم، كان معروفاً في بدايات وضع النظرية النحوية العربية، بل ربما لا نبالغ إذا ما قلنا إنها الأساس الذي بنيت عليه، وإن لم يُصرَّح بذلك. ومن هنا، كان النحو العربي في عهده الأول يبتعد عن التفسيرات المنطقية، والأحكام المعيارية، ويقوم على الوصف اللغوي الدقيق الذي يبدأ من الجزئيات وينتهي بالكليات، ولكن بعد ظهور الاهتمام بالمنطق في القرن الثاني الهجري أصبح النحو معيارياً بامتياز، وتخطى الجزء إلى الكل، واختفت التحليلات النظامية لآلية عمله في الذهن البشري، واقتصر على الكلام المنطوق المعلل دوماً بتعليلات لا تتفق وطبيعة اللغة البشرية التي هي ملكة إبداعية فطرية في المقام الأول. وقد أدى هذا الابتعاد عن هذه الطبيعة إلى تعقيد النحو العربي، وأصبح بعد أن كان في عهده الأول نظاماً يستلذ المتعلم بتذوقه ومعرفة تركيبه وآلية عمله، أصبح عبارة عن قواعد معيارية تعيق التفكير والتأمل بكثرة تفصيلاتها، وبعدم منطقية تعليقاتها. وقد أدى ذلك بالطبع إلى ظهور الدعوات المنادية بتيسير

النحو، واقتراح طرق جديدة تجعل النظام النحوي ينفذ إلى الذائقة اللغوية بوصفه ملكة وإبداعاً. لن يتناول هذا البحث هذه الدعوات؛ لأنها خارج نطاق اهتمامه، ولكنه في المبحث الآتي يقترح التركيز في تعليم النحو العربي على النظرة النظامية للغة، بوصفها نظاماً داخلياً تحركه وتقوده القواعد النحوية التوليدية؛ حتى ندرك من خلالها كيف يبدع العقل العربي هذه القواعد؛ لنساعد مكتسب ومتعلم هذا النحو على تذوقه واستيعابه بيسرٍ وسهولة.

٧-٢. نظامية اللغة وتعليم النحو العربي

إلى جانب تقديم نماذج صورية واضحة للغة الإنسانية، يهتم النحو التوليدي منذ بداية ظهوره بتقديم تفسير لإشكالية اكتساب وتعلم اللغات، وكان السؤال الذي أرقّت إجابته هذه النظرية هو كيف يصل متكلم لغة إلى اكتساب ما يكتسبه من معرفة لغته؛ إذا ما عرفنا أن دور التجربة الخارجية في محيطه اللغوي في تشكيل هذه المعرفة محدودٌ جداً؟

وقبل تقديم مقترح لتعليم النحو العربي وفق النظرة النظامية للغة في ضوء مبادئ النظرية التوليدية، ينبغي بداية أن نفهم كيفية اكتساب الطفل للغة. يرى تشومسكي (١٩٧٥) أن النمو اللغوي عند الطفل، مهما كانت لغته، يعني:

أ) أن الطفل يولد وهو مزود بجهاز اكتساب اللغة Linguistic Acquisition Device يمكنه من استنباط قواعد لغته الخاصة به من استعمال المحيط الآني للغة. وبتعبير أبسط: يولد الطفل وهو مزود بيولوجياً بملكة اللغة التي هي هبة موروثية فطرياً، تنمو عنده من خلال اتساع خبرته اللغوية.

ب) أن هذا الجهاز اللغوي الفطري مزود بقواعد كلية وعامة صالحة لتعلم أي لغة^(٣٤)، وعمل الطفل المتميز هو تحديد خصائص اللغة التي يتعرض لها (وهي غالباً لغته الأم/ لغة المحيط). فالطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء، بل يولد ولديه قدرة فطرية على تعلم أي لغة من لغات العالم مهما كان مستوى ذكائه؛ إذ لا علاقة بين الذكاء وعملية الاكتساب اللغوي. فالمبدأ العام في الاكتساب اللغوي، وفقاً للنظرية التوليدية، ينطلق من أن النظام اللغوي مزود بمقدرة نحوية فطرية لديها القدرة على التمييز بين ما يصح وما لا يصح من التراكيب والجمل من خلال معرفة المتكلم المثالي الضمنية بقواعد لغته، وهي قدرة إبداعية Creativity متجددة فيها سمة الإنتاجية التي لا تحد، على الرغم من أنها من قواعد محدودة كما شُرح عند الحديث عن أسس النظرية التوليدية في مبحث ٤ - ١.

فالخطوة الأولى لدراسة نحو أي لغة يجب أن يبنى على افتراض مبدأ الفطرة اللغوية، وأن يشعر متعلم هذا النحو بوجود هذه الفطرة، وما يترتب على وجودها من القواعد الكلية والسمة الإبداعية للغة، وكذلك على وجود الكفاية اللغوية التي بها يكتسب ابن اللغة غريزاً معرفة ضمنية بقواعد لغته. وعندما نفعل ذلك، نحن نزرع جانباً كبيراً من التهيئة النفسية والتفائل في نفس المتعلم؛ تجعله يقبل على تعلم وتذوق لغته؛ لأنها نظام وبنية داخلية في عقله يجب عليه سبر أغوارها.

ينبغي أن يُنظر إلى النحو على أنه وصف شامل للغة في جميع جوانبها: الصوتي والنحوي والدلالي، وليس تحليلاً للجملة فقط. فالكفاية اللغوية المسيرة لنظامية اللغة ما هي إلا المعرفة الضمنية بالقواعد التوليدية التي لا تشمل النحو فحسب بل يشاركه

(٣٤) وقد ساعد هذا الافتراض بوجود نظام لغوي متكامل، مزود بقواعد نحوية عامة، ويولد فطرياً مع الطفل - قد ساعد على فهم عملية اكتساب اللغة الأولى، وسهل كثيراً من تعليم اللغات الأجنبية، وربط ربطاً وثيقاً بين اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية.

الصوت والدلالة كما وضحه المخطط البياني في (١). كما ينبغي، أيضاً، أن تُغير النظرة إلى النحو من علم قواعدي معياري، إلى اعتباره ملكة إبداعية تقوم على عمليات محدودة تولد جملاً غير محدودة، كما هو حال اللغة التي تنتج جملاً غير محدودة من أصوات محدودة. لكن هذه الملكة يجب أن تستغل من البداية؛ لأنها ذات "إمكانيات انتقائية محدودة تكون مفتوحة في المرحلة الأولى من مراحل اكتساب اللغة، أو تعلمها، ثم يقع إغلاقها أو تثبيتها في مرحله نضوج الملكة الخاصة الموسّطة التي تكفيها التجربة باستغلال المؤهلات الفطرية اللغوية منها والمعرفية" (الفاسي الفهري، ١٩٩٨ : ١١).

ونحن عندما نستطيع أن نؤسس لهذه المبادئ في ذهن المتعلم، نستطيع حينها ترقية فطريته بدرس النظام اللغوي من ناحية معرفية إدراكية، ومن ناحية استعمالية تنمو بالسماع، وممارسة الكلام والتعود على صياغته بصوره المختلفة من حديث وحوار وخطابة وإلقاء وكتابة؛ لكي يكتسب ما يملأ به هذه الفطرة اللغوية؛ فيزداد النمو الداخلي التنظيمي للقواعد الكلية في ذهنه، ويصبح قادراً بمعرفته الضمنية للغة على اختيار ما يتلاءم ونظام لغته (العايد، ٢٠٠٧). عند ذلك فقط نستطيع أن نمكنه من الاستخدام الواعي لمبادئ النحو في "مواقف جديدة من الصعب التنبؤ بها أو حصرها، وهنا يمكن القياس والتحويل والابتكار" (البار، ٢٠١١)، كما نمكنه أيضاً من تقوية حدسه اللغوي فيصبح قادراً أكثر "على أن يدلي بمعلومات حول مجموعة من الكلمات المتعاقبة من حيث هي تؤلف جملة صحيحة لغوياً أو جملة منحرفة عن قواعد اللغة" (زكريا، ١٩٨٣ : ١٥٧).

وأخيراً، علينا أن نقدم النحو للمتعلم (عبر تدريبات لغوية) في صورة نظام داخلي يتألف من عمليات عميقة وأخرى سطحية، لا تفهم الثانية إلا في ضوء الأولى، ولا تتم الثانية إلا بعد عمليات أدنوية صغرى ذات نسق حاسوبي كما شُرح في المبحث ٦ - ١.

٨ - الخاتمة

حاول البحث الحالي أن يقدم دراسة شاملة حول نظرية "نظامية اللغة" منذ ظهورها على يد دي سوسير في شكل فكرة تمثلت في عدّ اللغة المعنية نظاماً داخلياً، وترجمه عملية الكلام إلى الحيز الملموس، إلى أن تبلورت على شكل نظرية متكاملة عند نعوم تشومسكي تحت مظلة نظريته الشهيرة: نظرية النحو التوليدي. ووضح البحثُ الطريقة التي طور بها تشومسكي "نظامية اللغة" عندما جعل من القواعد التوليدية المحرك الفاعل لهذه النظامية في صورة نسق مثالي من الأوليات والمسلمات والمبادئ العامة الموجودة في الذهن البشري، يُكشف من خلالها عن المقدرة اللغوية لتكلم اللغة. كذلك حاول البحث أن يصور كيف يبدع العقلُ اللغة من خلال عرضه لرؤية تشومسكي التي بثها عبر نظرياته المختلفة. وأخيراً ختم البحثُ مباحثه برصد هذه النظرية في أدبيات النحو العربي القديم، وخلص إلى أن نحاته الأوائل عرفوا أن اللغة نظام مشتمل على قواعد عامة تحكمها معرفة ضمنية بما يصح وما لا يصح من تلك القواعد، بيدَ أن النحو العربي بعد مرحلة التأسيس انحرف عن هذه النظرية وفضل منطَقة النحو؛ مما قاد إلى تعقيده والنفور من درسه. وقد دعا البحثُ إلى العودة في تصوير اللغة على شكل نظام داخلي ذي بنية في عقل المتكلم في تدريس النحو العربي؛ والنظر إليه على اعتبار أنه عملية إبداع تُحدّد أطرها مجموعُ القواعد الفطرية المختزنة في الكفاية اللغوية؛ لتوليد ما لا نهاية من الجمل.

شكر وتقدير

أود هنا أن أتقدم بالشكر والعرفان لجامعتي: جامعة القصيم، ممثلة في عمادة البحث العلمي، لدعمها السخي للبحوث العلمية بالجامعة؛ وأنتهز الفرصة هنا لأشكر العمادة على دعمها ببحث: "معجم مصطلحات النظرية النحوية الحديثة" للباحث عام ١٤٣١هـ، تحت رقم ٣٨١، والذي كان نواة مشروع هذا العمل. كذلك أود أن أتقدم بجزيل الشكر لسعادة الدكتور إبراهيم المطوع، مدير مركز بحوث كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، على تفعليه بيئة البحث العلمي بالكلية. كما لا يفوتني أن أنتهز الفرصة؛ لأشكر الأساتذة الذين أفادوني بتعليقاتهم واقتراحاتهم في نقاشاتي معهم حول أفكار هذا البحث، وأخص بالشكر الدكتور المنصف عاشور، والدكتور حمزة المزيني. كما أشكر طلابي وطالباتي في برنامج الماجستير في الدراسات اللغوية على النقاشات العلمية التي قضيناها سوياً حول قضايا لسانية في مادة "نصوص لغوية مترجمة"، والتي كان لها عظيم الفائدة في كتابة مادة هذا البحث. وأخيراً، أقدم عظيم شكري للفاحصين الثلاثة الذين تفضلوا بقراءة البحث ونقده، فلقد كان لنقدهم واقتراحاتهم عظيم الفائدة في تصيب مادة البحث لغة وأسلوباً ومعلومة، فلهم مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان.

المراجع

المراجع العربية

- [١] أحمد، يحيى. (١٩٨٩). "الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة"، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٠، العدد ٣، أكتوبر - ديسمبر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- [٢] أريفيه، ميشال. (٢٠٠٩). البحث عن فردينان دو سوسير. ترجمة: محمد خير محمود البقاعي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- [٣] إيفيتش، مليكا. (٢٠٠٠). اتجاهات البحث اللساني. ترجمة. سعد مصلوح ووفاء فايد. بغداد: المجلس الأعلى للثقافة.
- [٤] أوكان، عمر. (٢٠٠١). اللغة والخطاب. البيضاء: إفريقيا الشرق.
- [٥] البار، ابتهال محمد. (٢٠١١). تعليم اللغة على ضوء نظرية النحو التوليدي التحويلي. قدم للمؤتمر الدولي لتعليم اللغة العربية: آفاق وتحديات ماليزيا والصين. جامعة ماليزيا الوطنية، في الفترة (٥ - ٦ ديسمبر ٢٠١١).
- [٦] بارتشت، بريجيتته. (٢٠٠٤). مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعومتشومسكي. ترجمة: سعيد حسن بحيري. القاهرة: مؤسسة المختار.
- [٧] بناني، محمد الصغير. (٢٠٠١). المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، الجزائر: دار الحكمة.
- [٨] بوول، جيفري. (٢٠٠٩). النظرية النحوية. ترجمة: مرتضى جواد باقر، بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية.
- [٩] تشومسكي، نعوم. (١٩٨٣). جوانب من نظرية النحو، ترجمة مرتضى جواد باقر، جامعة البصرة، العراق.

- [١٠] تشومسكي، نعوم. (١٩٨٧). *البنى النحوية*. ترجمة: يوثيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة. الدار البيضاء: منشورات عيون.
- [١١] تشومسكي، نعوم. (١٩٩٣). *المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها*، ترجمة وتعليق وتقديم: محمد فتوح، القاهرة: دار الفكر العربي.
- [١٢] التميمي، جابر عبد الأمير. (٢٠٠٣). *جذور النظرية التوليدية والتحويلية في كتاب سيويه. رسالة ماجستير، كلية الآداب: جامعة بغداد*.
- [١٣] جوزيف، جون؛ نايجل لف؛ تولبت جي تيلر. (٢٠٠٦). *أعلام الفكر اللغوي ج٢*. ترجمة: أحمد شاكر الكلابي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- [١٤] جوزيف، جون. (٢٠٠٩). *أدلجة دي سوسور: قراءتا بلومفيلد وتشومسكي لكتاب محاضرات في اللسانيات العامة*. ترجمة باقر جاسم محمد. الفصل ٣ من كتاب: Joseph E. John and Talbot J. Taylor (1990) *Ideologies of Language*. Routledge. London. (p 51- 78)
- على الرابط التالي: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=94313>
- [١٥] ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن. (١٩٦٨). *المقدمة*. تحقيق: علي عبدالواحد وافي. بيروت: لجنة البيان العربي.
- [١٦] دلاش، ج. (١٩٩٣). *مدخل إلى اللسانيات التداولية*، ترجمة محمد يحياتن، د.م.ج.، الجزائر.
- [١٧] دي سوسير، فرديناند. (١٩٨٥). *علم اللغة العام*. ترجمة: يوثيل يوسف عزيز. مراجعة: مالك طليبي. بغداد: دار آفاق عربية.
- [١٨] دي سوسير، فرديناند. (١٩٨٥). *دروس في الألسنية العامة*. ترجمة: صالح القرماذي، محمد الشاوش، محمد عجينة. تونس: الدار العربية للكتاب.

- [١٩] روبنز، ر. هـ. (١٩٩٧). موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. ترجمة: د. أحمد عوض. الكويت: عالم المعرفة.
- [٢٠] زكريا، ميشال. (١٩٨٥). مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- [٢١] زكريا، ميشال. (١٩٨٦). الألسنية التوليدية والتحويلية و قواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية)، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- [٢٢] زكريا، ميشال. (١٩٨٣). الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- [٢٣] سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (١٩٨٨). الكتاب. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- [٢٤] السيد، عبد الحميد. (٢٠٠٣). دراسات في اللسانيات العربية. عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع.
- [٢٥] شربل، موريس. (١٩٩١). موسوعة علماء التربية وعلماء النفس. بيروت: دار الكتب العلمية.
- [٢٦] الصادقي، فائقة. (٢٠٠٥). نظرية تشومسكي في القواعد العامة: مقدمة للقارئ العربي. جامعة البحرين.
- [٢٧] الطيب، بنكيران محمد. (١٩٩٧). "الخلفية الفلسفية في النظرية التوليدية"، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٥، العدد ٣، يناير/مارس، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- [٢٨] العايد، سليمان. (٢٠٠٧). توظيف الكفاية والأداء في تدريس النحو العربي: الرتبة والمطابقة نموذجاً. قدّم للمؤتمر الدولي: اللغة العربية والأدب الإسلامي

- منهجاً وتطوراً. الجامعة التربوية في باندونج، إندونيسيا، في الفترة (٢٣) - ٢٥ أغسطس (٢٠٠٧).
- [٢٩] عمارة، خليل أحمد. (١٩٨٤) في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق. جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- [٣٠] علوي، إسماعيل حافظ. (٢٠٠٩). اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- [٣١] علي، محمد محمد يونس. (٢٠٠٩). المدرسة التداولية. من مدونته: takhatub.blogspot.com/2009/07/5.html
- [٣٢] غلفان، مصطفى؛ محمد الملاخ؛ حافظ علوي. (٢٠١٠). اللسانيات التوليدية: من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، إربد (الأردن): عالم الكتب الحديث.
- [٣٣] الفاسي الفهري، عبدالقادر. (١٩٩٨). المقارنة والتخطيط في البحث اللساني. الدار البيضاء: دار توبقال.
- [٣٤] الفاسي الفهري، عبدالقادر. (٢٠٠٠). اللسانيات و اللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية. الدار البيضاء: دار توبقال.
- [٣٥] الفاسي الفهري، عبدالقادر. (٢٠١٠). ذرات اللغة العربية وهندستها: دراسة استكشافية أدنوية. بيروت: دار الكتاب الجديد.
- [٣٦] قدور، أحمد محمد. (٢٠٠٨). مبادئ اللسانيات. دمشق: دار الفكر.
- [٣٧] لاينز، جون. (١٩٨٠). علم الدلالة. ترجمة: مرتضى جواد باقر. البصرة: مطبعة جامعة البصرة.
- [٣٨] لاينز، جون. (١٩٨٥). نظرية تشومسكي اللغوية. ترجمة: د. حلمي خليل. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

[٣٩] محسب، محي الدين. (٢٠٠٨). *انفتاح النسق اللساني، دراسة في التداخل الاختصاصي*. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

[٤٠] هلبش، جرهارد. (٢٠٠٧). *تطور علم اللغة منذ ١٩٧٠م*. ترجمة: سعيد حسن مجيري. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.

[٤١] الوافي، عبد الرحمان. (٢٠٠٥). *المختصر في مبادئ علم النفس*. الجزائر: ديوان المطبوعات.

[٤٢] الوعر، مازن. (١٩٩٩). *جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب في ضوء النحو العالمي لتشومسكي*. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر لوئجمان.

[٤٣] يوسف، أحمد. (٢٠٠٤). *النحاة الجدد وميلاد اللسانيات التاريخية*. مجلة عالم الفكر، مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد ٢، المجلد ٣٤.

المراجع الإلكترونية

[٤٤] الموسوعة الحرة: <http://ar.wikipedia.org/wiki>

المراجع الأجنبية

Auroux, S. (1998). *La raison, le langage et les normes*, PUF, Paris. [٤٥]

Barsky, R. (1997). *Naom Chomsky: A Life of Dissent*. MIT Press. [٤٦]

Bloomfield, L.(1933).*Language*.New York: Henry Holt. [٤٧]

FassiFehri, A. (1993). *Issues in the Structure of Arabic Clauses and Words*. [٤٨]
Kluwer: Dordrecht.

Chomsky, N. (1959). "A Review of B. F. Skinner's Verbal Behavior" in [٤٩]
Language, 35, No. 1, 26-58.

Chomsky, N. (1963). *Formal properties of grammars*. In R.D. Luce, R.R. [٥٠]
Bush,

and E. Galanter (Eds.) *Handbook of mathematical psychology*. Volume [٥١]

II. New York: Wiley. p. 323-418. [٥٢]

- Chomsky, N. (1964). Current issues in linguistic theory, in J.A. Fodor & J.J. Katz (dir.), *The structure of language, Readings in the philosophy of language* Englewood Cliffs, Prentice Hall, 51-118. [٥٣]
- Chomsky, N. (1965). *Aspects of the theory of syntax*. Cambridge, MA: MIT Press. [٥٤]
- Chomsky, N. (1966). *Cartesian linguistics*, Harper and Row, New York. [٥٥]
- Chomsky, N. (1967). "The Formal Nature of Language." In *Biological Foundations of Language*, edited by E.H. Lenneberg, 397-442. New York: Wiley and Sons. [٥٦]
- Chomsky, N. (1970). Remarks on nominalization. In: Jacobs Rosenbaum (eds): *Readings in English Transformational Grammar*. Ginn, Waltham, Mass. 184-221. [٥٧]
- Chomsky, N. (1972a). *Language and Mind*. New York: Harcourt Brace Jovanovich. [٥٨]
- Chomsky, N. (1972b). *Studies on semantics in generative grammar*. The Hague: Mouton. [٥٩]
- Chomsky, N. (1975). *Reflections on language*. New York: Parthenon Press. [٦١]
- Chomsky, N. (1977). *Essays on form and interpretation*. New York: North-Holland. [٦٢]
- Chomsky, N. (1981). *Lectures on government and binding*. Dordrecht: Foris. [٦٣]
- Chomsky, N. (1986). *Knowledge of Language: Its Nature, Origin and Use*. New York: Prager. [٦٤]
- Chomsky, N. (1993). A minimalist program for linguistic theory. In Hale, K. & S. Keyser (eds.) *The view from Building 20*. Cambridge, Mass: MIT Press. 1-52. [٦٥]
- Chomsky, N. (1995). *A Minimalist Program for Linguistic Theory*. The Minimalist Program. Cambridge, Mass: MIT Press. 167-217. [٦٦]
- Chomsky, N. (2000). *Minimalist Inquiries*. In Martin, R., D. Michaels & J. Uriagereka (eds.) *Step by step: Essays on minimalism in honor of Lasnik Howard*. Cambridge, Mass: MIT Press. 83-155. [٦٨]
- Chomsky, N. (2001). *Beyond Explanatory Adequacy*. MIT Occasional Papers in Linguistics 20. Cambridge, MA: MITWPL. 1-28. [Reprinted in: Belletti, Adriana (ed.) (2004): *Structures and Beyond. The Cartography of Syntactic Structures*, vol. 2. Oxford: Oxford University Press. 104-131]. [٦٩]

- Johnson, K. (2004). On the systematicity of language and thought. *Journal of Philosophy* .101(3), 111-139. [٧٠]
- Radford, A. (2004). *Minimalist Syntax: Exploring the Structure of English*. [٧١]
Cambridge: Cambridge University Press.
- Skinner BF (1957). *Verbal behavior*. New York: Appleton-Century-Crofts. [٧٢]
- Seuren, P. (1998) *Western Linguistics: An Historical Introduction*. Oxford: [٧٣]
Blackwell.
- Smith, N. (1999). *Chomsky: Ideas and Ideals* Cambridge University Press. [٧٤]

The Systematicity of Language Feature and its role in Understanding How the Mind Creates Language

Dr. Nasser Al-Horais
Qassim University, KSA

Abstract. This study considers the nature of the relationship between Human Language as being a system of signs with multi-levels, and the creative competence of the human mind in building this system and activating its This study considers the nature of the relationship between Human Language as being a system of signs with multi-levels, and the creative competence of the human mind in building this system and activating its role in human communication. To this ends, the study explains the Systematicity of Language feature and its role in explaining how the mind creates language. It begins with a description of the history of the most important modern linguistic views articulated first by Ferdinand de Saussure, and developed later by the most famous linguists in the 20th century, ending up with a comprehensive discussion about Chomsky's theory of Generative Grammar. The study shows how Chomsky's theory focused via its evolving models on the way of language creativity and how the mind creates language. Having done that, the study turns to suggest that taking the advantage of the Systematicity of Language feature helps us understanding the nature of Arabic Grammar, and consequently, teaches us how the knowledge of language is acquired.